
رواية
إيرنان ريبيرا لتيلير
ترجمة: محمد الفولي
العصامي
فريق
متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:



كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها .

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

العصامي

رواية..

الكاتب: إيرنان ريبيرا لتيلير

ترجمة: محمد الفولي

عن الرواية

تنتمي رواية "العصامي" إلى مجموعة من أعمال إرنان ريبيرا ليتيلير خصَّصها بالكامل لتناول عالم مستوطنات الملح الصخري في صحراء أتاكاما التشيلية، إلا أنَّ ثمة شيئاً مختلفاً يميزها عن البقية: كونها مزيجاً بين السيرة الذاتية والخيال الروائي. يقول المؤلف، الذي ولد في 11 يوليو من عام 1950، في تصريحات لإذاعة "Duna 89.7 FM" التشيلية: إنّه يسعى إلى "أن يظن القارئ بعد قراءة الرواية أنّ الحقيقي خيالي، والخيالي حقيقي"، خاصة وأنّه من المعروف في الأوساط المحلية أنَّ ليتيلير وُلد في مستوطنة "ألغورتا" قبلأن ينتقل لاحقًا للعيش في مستوطنتي "ماريا إيلينا" و"بدرو دي بالديبيا" حيث أكمل دراسته.

المترجم

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الإهداء..

إلى ابنتي موسيكا ميسترال..

عصامية عالم الرقص..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١

الأمر الوحيد الذي افتقرَ إليه متجر الكتب اليتيم الموجود في المعسكر هو الكتب نفسها. ذات يوم نظرتُ بالمصادفة إلى واجهته الزجاجية، وأنا في طريقي إلى السينما لحضور حفلة الثانية ظهرًا ومشاهدة فيلم لمارلين مونرو، فرأيتُ غلاف كتاب يلمع بين مجلدات ودفاتر وظروف خطابات، كسمكة ملونة في حوض لأسماك السردين. قلتُ في نفسي: «إذا لم يكن كتابًا لوصفات الطبخ، فلا بُدّ أنه أحد أدلة أغنيات الموجة الجديدة»، التي تشرح طرق عزفها على الجيتار.

أنا لم أعتد الطبخ أو العزف على الجيتار.

اقتربتُ من الزجاج، فوجدتُ أنه كتاب «أنطولوجيا الشعر التشيلي المعاصر» لألفونسو كالديرون. لم أصدق نفسي! فأنا حتى سن التاسعة عشرة لم أكن قد أمسكت بين يديّ كتابًا عن الشعر قط؛ وبعيدًا عن الكتاب المقدس، فأكثر الأمور ثقافةً التي عرفتها آنذاك بعضٌ من مختارات «ريدرز دايجست» التي أعارها لي أحد الأصدقاء.

بدأتُ كتابة القصائد في المعسكر الذي شهد نشأتي، حيث اختبرتُ أيضًا تجربة الحب الأولى، التي تكتسب فيها أتفه الأمور وأكثرها ابتذالًا، مسحة غنائية أمام عينَي الشاعر الناشئ العصفوريتين ودَوخة استكشافه. مع ذلك، فإن تصوّري عن الشعر لم يتعدَّ الأبيات التي قرأتُها في النصوص المدرسية: أغاني القراصنة، قصائد بلابل الألوان السبعة، وتلك الأشعار الوطنية الطويلة التي لطالما تلَتها الطالبة المتفوقة ذات النظارة في كل صباح.

ما إن تعلمتُ أحرفي الأولى، حتى شعرتُ بحاجة ملحة -وربما فسيولوجية- إلى القراءة. أعني قراءة أي شيء وكل شيء تطوله يدي. القراءة... القراءة كمجنون. تكاثفت هذه الحاجة، حين بدأتُ أكتب، وتحولت إلى عادة تشبه العوز كانت تدفعني لآخذ من الشارع أي ورقة مطبوعة ملقاة في مهب الريح؛ لأجلس وأقرأها أرضًا.

بعد وقت قليل من وصولي إلى مستوطنة الملح الصخري، التي أعمل فيها الآن، اكتشفتُ مجلة نسائية تخصص صفحة للشعر: مجرد مقتطفات موجزة إلى جوار نبذة صغيرة عن المؤلف. كان ورقها لامعًا وثمنها مرتفعًا بالنسبة إليّ، واقتناؤها يكاد يكون رفاهية. لهذا اعتدتُ أن أحضر كل خمسة عشر يومًا في أكثر الأوقات ازدحامًا، حين يعلقونها على حبل ممدود عند مدخل المتجر بمشابك نشر الملابس، لأراقب المالكة بطرف عينيّ، وأنا أقلب صفحاتها حتى أصل إلى الصفحة المرغوبة، حريصًا أشد الحرص على ألا أفتحها كثيرًا لكيلا أمزقها، وتائقًا إلى ما فيها إلى حد تسارع ضربات قلبي. اعتدتُ أن أقرأ الأبيات، رغم أنَّ بعضها أصلًا لم يكن جيدًا، بالنهم الذي قد يلعق به تائه في صحراء البامبا ([1]) قطرات الندى من فوق إناء حجري.

دخلت المتجر ببؤس قبل أن يستبقني قارئ آخر، متناسيًا مارلين مونرو فالمال كان يكفي شيئًا واحدًا: إمّا السينما وإمّا الكتاب، ثم تحققت لاحقًا من الأمر: نسخة واجهة العرض الزجاجية هي الوحيدة المتاحة. خرجت والكتاب أسفل ذراعي بعد أن تحول قلبي إلى طبلة ضخمة. مضيتُ سريعًا، خشية أن تتذكر السيدة في اللحظة الأخيرة أن ثمة من حجز الكتاب ودفع ثمنه. أظن أنَّ أي شخص رأى التعبير المرسوم على وجهي وأنا

أبتعد، والطريقة التي اعتصرته بها أسفل ذراعي، كان سيحسب أنني سرقته. لمّا انعطفت عند الناصية، تنفست بهدوء. الكتاب بغلافه الأزرق والأحمر أصبح كله ملكي.

بينما أسير في وسط الشارع، كسائر أهالي البامبا، بدأتُ أتصفحه. توقفت لأقرأ مقطعًا منه، ثم تقدمت بعدها قبل أن أتوقف مجدداً. وصلت إلى الميدان، وأنا على هذه الحال، كمن يخطو فوق الهواء. لم يظهر هناك كعادة ساعة القيلولة سوى بعض كلاب الشوارع المستلقية الدائخة من الحر. (لم تكن قد مرت سوى فترة قليلة على اكتشافي بكل سعادة أنَّ أشد أيام القيظ تُعرف بأيام الكلب). وجدت أيضًا «عجوز الكارتون» يجلس غاطسًا في أفضل المقاعد الظليلة في الميدان الحجري الصغير. لطالما قال الناس إنَّ عمر العجوز تجاوز المائةَ العام، والحقيقة أنّ بشرته بدت فعلاً كالورق المقوى المتغضن.

بعد أن تجاهلتُ تمهيد الكتاب بكل أريحية، جلست على المقعد الذي يتفاداه الجميع من دون أن أدرك، منبهراً بالقصيدة الأولى: «انبثاق القديس بطرس ومباركة البحر في تالكاوانو» لمؤلفها دييغو دوبليه أورّوتيا. كان المقعد بلا مسند، وشجرة الخروب إلى جواره جافة ومتشققة وما من ظل ملعون لها. ترددت عبر مُكبرات صوت السينما الموجودة أمام الميدان كلمات أغنية «مسيرة على نهر كواي». كانت صافراتها إعلاناً لبداية العرض، فحثت قطيع الناس الذين يثرثرون في البهو على الدخول.

لم ألقِ بالاً للأمر، رغم كوني هاوياً عتيدًا للسينما، وانتظاري فترة طويلة لمشاهدة فيلم «الرجال يفضلون الشقراوات»، ففي تلك اللحظات باتت كل صفحة في كتابي ستارة لشاشة عرض، وكل

بيت لقطة من شريط مصور، وكل مقطع شعري مشهدًا سينمائيًا، وكل قصيدة فيلمًا جديدًا فخمًا ومثيرًا.

واصلت القراءة لاحقًا وأنا أتناول شاي الساعة الخامسة في المطعم، وابنة صاحبته تتنقل وتدور بين موائده كراقصة، وهي مبتسمة بأسنانها البيضاء كالملح الصخري. كان يوم راحتي، ولهذا استمرَّيتُ في القراءة حتى الغروب جالسًا على مقعد في فناء سكن العزَّاب، وبعض عمال المناجم يعلقون ملابس عملهم بين الأحجار المنحوتة وسط مزاح من العيار الثقيل. لم أتوقف عن القراءة ليلًا على الضوء الخافت لمصباح الأربعين واطًا، وأنا فوق الفراش العلوي الحديدي، بعد أن أغشت الاستعارات عقلي، رغم مطالب زملائي في الحجرة بإطفاء الضوء نهائيًا «فالفجر سينبلج بعد برهة، اللعنة!».

كونُنا ثلاثة أشخاص فقط في الغرفة، وأنَّ زملائي يعملون في ورديات مختلفة عن ورديتي ضربة حظ. لطالما قضيتُ بهذه الطريقة وقتًا أطول بمفردي، وتمكنت من الكتابة والقراءة من دون إزعاج. الأمر السلبي الوحيد هي أيام الآحاد؛ فرغم أنَّ اليوم كله كان يصبح كاملًا أمامي للكتابة والقراءة، فقد اعتادوا أن يضبطوا الراديو بعلو الصوت لسماع مباريات كرة القدم والتعليق صارخين مع الغرف المواجهة على قرارات الحكم والفرص التي تفوح منها «رائحة الأهداف» بتعليق أسرع مذيعي البلاد وأكثرهم هذيانًا: كامل الأوصاف داريو بيردوغو.

وضعتُ الكتاب في حقيبتي، في اليوم التالي نحو السادسة صباحًا، بعد أن لففته بورق صحيفة، إلى جوار الخبز مع المُرتديلا وأكياس الشاي والسكر المُقاسة والموزونة التي يسلمونها لنا في المقصف، وأخذته معي إلى المنجم.

لقد أخذته معيّ طيلة ثلاثة أيام متواصلة.

قرأته في قطار الذهاب، ورؤوس الرجال العجائز تتأرجح، وأيضًا في راحة الوجبة الخفيفة، وزملاء جماعتي يقضون قيلولتهم مُمددين فوق الأرائك الحجرية، وبالمثل في قطار العودة، والعالم كله يمزح ويتنافس في لعب الـ«بريسكا» ([2]) . صعدت ونزلت من القطار وسط دوختي وعنادي وانخطاف بصري بلغة بابلو دي روكا البركانية، وبالأصداء الإنجيلية لغابرييلا ميسترال، وبشِعر بيثينتي ويدوبرو الفلكي، في ظل انبهاري بالسهولة العبقرية لشعر بارّا ([3]) المضاد، وأيروسية جونثالو روخاس العفيفة، وكلمات إنريكي لين المتوجة بقوارير مكسورة.

وجدتُ الشعر هنا بأبيات الحاضر.

مع نهاية الأسبوع، وصلت إلى جناح العزاب وأنا مسحور على وجه الخصوص بلغة بارّا القادرة على صياغة الشعر من كلمات عادية كحجر وماء وخبز وتل. جمعت كل إنتاجي الشعري الذي تخطى مائة قصيدة، من دون حتى أن أنفض غبار الملح الصخري من فوقي، وراكمته في صورة هرم في وسط الفناء. أشعلت الثقاب بأعصاب ثابتة وقربته منه مقرفصًا، فاجتاحني إحساس غريب بأنني لست حقيقيًا. تذكرت، وأنا أتأمل الأوراق التي تلتهمها النيران، صورة العُلّيقة المشتعلة من الكتاب المقدس ([4]) ، وظننت وسط حفيف ألسنة اللهب أنني أسمع أبياتي المسكينة المقفاة بالمقاس تنتحب؛ تلك الأبيات لم تكن لتخلو تحت أي ظرف من كلمات غنائية لها كناياتها مثل قيثارة وشفق والرِق الممسوح. تلك الكلمات التي أحسب أنني رأيتها تتواثب كما الشرر من بين لهيب النيران المُطهِرة.

الشر نفسه كلمة صغيرة أخرى راقت لقصائدي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢

أختي حبيبتي أورا، لم أكتب إليكِ منذ فترة. المشكلة أنَّ الوقت يهرب مني كالصاروخ وسط انشغالي بالمدرسة ومساعدة ماما في المطعم. لحسن الحظ جلبت ماما ابنتَي العم روسي وماري لمساعدتنا مع الزبائن؛ لأنني مللتُ حقًا من خدمة الموائد وغسل الأطباق بمفردي. نضحك كثيرًا معًا. إنهما رائقتان جدًا، كحال أهل المدن. يكفي فقط أن أخبرك أنهما تتسليان بابتكار ألقاب للزبائن. نضحك كثيرًا كالمجانين ونحن ننظر من الثقب السري الموجود في المطبخ مع كل هذه الألقاب التي تخطر على بالهما. رغم أنني أتسلى كثيرًا، فالأمر لن يصبح أبدًا كما كانت الحال معكِ. كان اتحادنا قويًا جدًا. لم تنبت سِنّنا الأولى في اليوم نفسه من العدم. لقد بدأنا في السير معًا، بل وتعلمنا القراءة في نفس الوقت. من المؤسف أننا لم نتمكن من التسلية بالشبَه القائم بيننا لوقت أكثر. لطالما قال بابا وماما إنهما كثيرًا ما خلطا بيننا إلى درجة أنَّ الواحدة منا كانت ترضع قنينة الحليب مرتين، وتبقى الأخرى بلا شيء، أو كحال تلك المرة التي مرضتُ فيها، وحصلتِ أنتِ على الحقنة. هل تتخيّلين كمّ المزحات التي كنا سنفعلها الآن ونحن نرتدي نفس الملابس؟ لكنكِ رحلتِ. حسنًا، تقول أمي إنّ الرب يعرف لِمَ يفعل ما يفعله. سلام يا أختي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٣

يقولون: إنَّ روساريو فييرّو دخل صالة التدريبات بالمصادفة، أو بالأصح بحثاً عن الظل. كانت نحو الثالثة عصرًا، وتأججت في وسط الشارع شمس حمراء ضاربة إلى البياض على ارتفاع لا يتخطى شبرًا واحدًا فوق أسقف الزنك. الحرارة ليست أقل في الداخل. الفارق الوحيد أنها لم تكن حارقة.

دهمته رائحة العرق والحجر الكلسي الطباشيري الكثيفة حين دخل، قبل أن يجلس على عارضة خشبية ممدودة كمقعد طويل إلى جوار الباب، لينهي تناول كيس بسكويت أشكال الحيوانات الموجود معه. ثمة أربعة رجال كانوا في الداخل، ومنهم الملاكم الذي لم يتوقف، وهو غارق في عرقه، عن ممارسة تدريب الوثب بالحبل فوق الحلبة. تطلّع الكل إلى روساريو فييرّو باهتمام بدا له مزعجًا، باستثناء الملاكم الذي ألقى عليه نظرة بطرف عينيه فقط.

بعد برهة، سألوه إذا ما كان جاء ليتدرب. نفى بتحريك رأسه فقط بسبب فمه الممتلئ، فدعوه كي يتدرب لأنَّ عوده قوي ولديه ما يلزم. سألوه عن وزنه، فقال روساريو فييرّو وفُتات البسكويت يتناثر حوله:

- أزيَد من الثمانين بقليل.

وزن خفيف الثقيل. هكذا قال الرجال.

هل سبق وارتدى قفازَي الملاكمة من قبل؟

- لم أفعلها قط.

ما الذي يفعله في هذه الصحاري؟ هل يمانع أن يخبرهم؟

أجابهم روساريو فييرّو، وهو يدسُّ في فمه حفنة بسكويت تضمنت سلحفاة وشيئاً يُشبه آكل النمل، أنه جاء بحثاً عن عمل.

هل هو بالغ؟

- عمري اثنان وعشرون عامًا.

هل يمتهن شيئاً ما؟

- في الجنوب كنتُ راعيًا للماعز.

نظر الرجال إلى بعضهم بعضًا، وانفجرت ضحكاتهم الخشنة لتصطدم بجدران الزنك، فالحصول على عمل مماثل وسط هذه الصحاري أمر صعب.

قال رجل أنفه مكسور، ويبدو حديثه كمن يعانون من تعذر النطق:

- ربما بإمكانه البحث عن عمل في المنجم لرعي أحجار الملح الصخري!

هتف الرجل السمين ذو الشعر الملون الذي يرتدي قميصًا، ويجلس مباعدًا بين ساقيه على مقعد خيزران هزاز في نهاية الصالة:

- أو في محطة المياه!

سيعرف روساريو فييرّو لاحقًا أنَّ محطة المياه هي المكان الذي تُعالج فيه فضلات الناس، أو بمعنى آخر غائطهم.

عبر الثقوب الموجودة في سقف الزنك، تسللت أشعة الشمس من بين ذرات الغبار الذهبي الطافية بعفوية كونية كأنها مجرات مُصغرة، ولأن روساريو فييرّو فكّر في أنَّ هؤلاء الحمقى قد يساعدونه في العثور على عمل، رضي أن يُصبح أضحوكتهم. بعدئذٍ، سألهم ببلادة: هل يقصدون بكلمة التدريب الصراع مع أحد؟

فقالوا له: نعم، لو أنها رغبته.

- ومع من عليّ أن أشتبك؟

أشار أحدهم نحو الحلبة:

- مع هذا.

قَيّمه بنظرة واحدة. بدا وزن الخصم، وهو رجل أصلع وجهه كوجه جزار، مثله تقريباً. ربما عوده مشدود أكثر، لكنه أقصر. لقد اشتبكَ روساريو فييرّو في مسقط رأسه مع رُعاة «أواسو» ([5]) أثقل من هذا الشخص بسبب خلاف على نعجة ضائعة. دسَّ قطعة البسكويت الأخيرة في فمه، ثم مرَّر يده فوق شعره -الذي صفّفه على طريقة إلفيس بريسلي، وعدّه مصدر فخره- ثم قال إنه لا يمانع. ليأتوا له بقفاز!

سألهم:

- لكن لو فزتُ، فهل ستوفرون لي عملاً؟

قال الرجل الذي خلَّفت الحصبة أثرها في وجهه، وبدا صاحب الكلمة الأخيرة:

- كإداري في المستوطنة!

على الحلبة، توقف الأصلع عن التراقص وتوجيه لكماته إلى الهواء. استند إلى الحبال، وراقبهم وهم يُلبسون الرجل الجديد قفازه. أطلَّ من وجهه تعبير ساخر: يمكنهم أن يُلبسوا هذا التيس القفازين بالعكس، ولن يدرك الأمر أصلاً.

بينما يساعده على ارتداء القفاز، سأله المتعثر في النطق الذي ناداه الآخرون مانيوغو، وبدا أقلهم سُلطة، أي واحدة بين يديه هي الأقوى؟ فقال روساريو فييرّو: إنها اليسرى. نظر الرجل القصير ذو الأنف المكسور واللغد المرتعش بطرف عينيه إلى الموجود في الحلبة، وغمز له بعينه.

لم يربط القفاز الأيسر جيدًا.

يقولون: إنَّ روساريو فييرّو وصل من الجنوب قبلها بيومين، وإنه نام في حجرة أدخله صديقه إليها سرًا؛ لأنَّ حرّاس سكن العُزاب لم يسمحوا لأحد لا ينتمي إلى «الشركة» بالدخول. إنها اللائحة. لم يُسمح لأحد أيضًا بإدخال مشروبات كحولية، أو إقامة حفلات، أو إدخال نساء لسن عاهرات. كما أنّ العاهرات كي يمارسن عملهنّ وجب عليهن إظهار «البطاقة الوردية» السارية.

بعد أنْ بات مستعدًا للنزال، سأله ذو البثور عن اسمه؟ ومن أين جاء؟ فذكرَ روساريو فييرّو اسمه، لكنه كذب بخصوص مسقط رأسه وقال إنه من أوبايي. لقد كفى وزاد أن يسخروا من اسمه ([6]) . ما من حاجة إلى أن يهزؤوا من اسم قريته أيضًا، لأنه أصلاً من بيخيرّييس ([7]) وهي مجرد مزرعة صغيرة بالقرب من أوبايي.

قدم الرجل نفسه:

- اسمي ريتوريكو غونثالث.

ثم أضاف بنبرة مهيبة:

- وأنا مدرب «المستوطنة».

بعدئذٍ، جعله يتواثب مدة دقيقتين، ويلكم الهواء، ثم حقيبة اللكم للإحماء. لم يكن لدى روساريو فييرّو أسلوب مميز، إلا أنه أشعّ قوة وثبات أعصاب يكاد يصل إلى حد الحيوانية. كان «مُحبًا لم يتلفه الهوى» كما وصفه مانيوغو. أمرهُ ذو البثور بعدها بأن يتدرب بكرة اللكمات السريعة، لكنه كان كارثيًا.

قال له دون ريتوريكو:

- لا تقلق يا فتى، ستتعلم مستقبلاً.

ومن دون أي إضافات، جعله يصعد إلى الحلبة.

صعد فوق الحلبة وأصبح وجهًا لوجه مع الملاكم، وبينما يملي عليه المدرب القواعد -عدم ضرب الرقبة، وعدم اللكم أسفل البطن، وعدم معانقة الخصم أو مواجهته بظهره- تيقّن روساريو فييرّو من أنّ قامته أطول، فشعر بصدره ينتفخ، وبأنّ ذراعيه أقوى، وبأنّ ساقيه أكثر رسوخًا. هناك في الأعلى، فوق الحلبة، كان في خير حال، كأنّه حقًا قد نشأ في حظيرة قتال تحوطها الحبال.

قال المدرب:

- ستتنافسان في ثلاث جولات. كل واحدة منها مدتها دقيقتان. أنا سأَحكم.

بعدها، نظر نحو نهاية القاعة وهتف:

- هيا يا «جزرة».

نهض السمين ذو الشعر النحاسي -الوحيد الذي ارتدى ساعة معصم- بتكاسل ثم أمسك عصا حديدية وضرب بها فوق قضيب سكة استخدموه كجرس.

كلينغ!

في اللحظة ذاتها، انقضَّ عليه «كِيد» لُونا، نافثاً الهواء من منخريه، كأنه يتحرك بفعل زنبرك. بدا كثور أعمى. ضيَّق الخناق عليه في الحلبة كلها، من دون أن يتوقف عن توجيه الضربات إليه، وروساريو فييرّو عاجز تقريبًا عن تفادي هذا الوابل من تشكيل اللكمات التي كالها إليه من الأعلى والأسفل والجانبين. بدا ابن العاهرة هذا كأخطبوط يرتدي قفازات! حاول أن يبتعد عنه بمسافة وتوجيه أيّ ضربة يتيمة، إلا أنّ الآخر أنهكه بلكماته القوية. فوق كل هذا، شعر روساريو فييرّو بأن قفاز يده اليسرى سائب.

في منتصف الجولة الثانية، وتحت سيل تشكيل اللكمات التي حُوصر بها عند الحبال، وبينما هو على وشك السقوط، رأى روساريو فييرّو قفازه الأيسر يطير، ثم لمح في الوقت ذاته يده العارية، فوجّه لكمة خُطافية اصطدمت مباشرة بفك خصمه. سقط «كيد» لونا على الأرض كجِوال بطاطا، فنظر روساريو فييرّو وهو لا يزال منغمسًا في طور القتال بفردة قفازه الواحدة إلى خصمه مفتوح الساقين فوق أرضية الحلبة.

نظر إليه مشدوهًا! وهو نفس حال بقية الرجال الذين بدوا مذهولين بقدر دهشته: لم يصدقوا ما حدث للتو.

لقد فاز راعي الماعز بالضربة القاضية!

تلعثم مانيوغو:

- هذا الأحمق الضخم يشرّف لقبه بحق. ضربته مثل الحديد ([8]) .

قال الأصهب:

- لو تدرَّب جيدًا وغيرنا اسم روساريو واستخدمنا «كيد»، يُمكن لهذا الراعي أن يصل بعيدًا.

لم يقل المدرب شيئاً، بل ظل يحرك رأسه من أعلى إلى أسفل، وهو يُضيّق عينه، وكفت هذه الإيماءة ليعلم الآخرون أنه ينسج خيوط شيء ما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٤

أختي! لديّ نبأ بمثابة قنبلة: أذنوا لي أخيرًا بالترشح لمسابقة «ملكة الربيع». سأمثل تحالف «المنجم» حيث يعمل بابا. يكاد يصيبني الجنون من فرط سعادتي. هل تعلمين أنني يوم أمس فكرتُ في الأزمة التي كانت ستواجه المنظمين لو أنكِ هنا؟ على الأرجح، كانت الحَيْرة ستغلبهم قبل أن يعرفوا أيًّا منا عليهم اختيارها، لكنني لاحقًا توصلتُ إلى أنني كنت سأصبح المختارة على أي حال. أنا الكبرى بخلاف كوني جميلة. تذكري أنني وُلدت قبلك بدقيقتين. ها ها ها. أصعب شيء، إقناع ماما. أنتِ تعرفين أنَّ بابا لا يتحدث كثيرًا في البيت. تقول ماما إنّ على الواحدة منا أن تتوخى الحذر مما قد يُقال في البامبا، وهي محقة لأنّ الناس يتحدثون دائمًا حتى لو لم تفعل الواحدة منا شيئًا سيئًا، وبالأخص تلك العجوز الساكنة أمامنا التي تُراقب بتركيز دائم ما تفعله أيّ امرأة: مع من تخرج؟ وإلى أين تذهب؟ وكيف هي ملابسها؟ أحيانًا أُخرج لها لساني من شدة شقاوتي. أعتقد أنَّ كلتينا كانت ستثير غضبها بأجمل الطرق. حسنًا يا أختي، سأحكي لكِ المزيد لاحقًا. سلام!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٥

بعد أسبوعين من العثور على الكتاب في واجهة المتجر، وجدتُ اكتشافاً أكبر انقلبت معه حياتي رأسًا على عقب: «المستوطنة» فيها مكتبة عامة! لم يكن في مستوطنة الملح الصخري التي جئت منها ونشأت فيها أي مكتبات، أي أنني قبلئذٍ لم أكن قد دخلت أي مكتبة قط. لم أر في حياتي التعيسة كأحد أطفال البامبا سوى ثلاثة كتب معًا أو فوق بعضها: الكتاب المقدس، وكتاب التراتيل، والعهد الجديد، وكلها كانت لأبي.

لم أصدق حين أخبرني كريسبو «الصيني» زميلي في جماعة المنجم صباحًا بالأمر، فهو أقل مَن توحي ملامحه بأنه قارئ. كنا قد استغلّينا وقوف رئيس جماعتنا وراء كتل الردم للإشراف على عملية إجلائها اليومية التي تبدأ في التاسعة والنصف وتستمر عشرين دقيقة محسوبة بالضبط، لنرتاح إلى جوار السكة، ونحن نوجّه ضربات بسيطة إلى القضبان، في محاولة لخداع أذنيه القويتين كأذنَي حصان (رغم معرفتنا بأننا لن ننجح في خداعه). حينئذٍ حدثني كريسبو «الصيني» عن المكتبة التي يذهب إليها لقراءة المجلات الرياضية، وأنها موجودة -بصورة شبه مموهة على حد تعبيره- في بيت كبقية البيوت قرب ملعب الملاكمة.

قال «الصيني»:

- إنّه أحد أيام الرغوة. لو دعوتني إلى جعة مثلجة ملآنة بالرغوة، فسأصحبك.

انقسمت الأيام بالنسبة إليه إلى نوعين: الأيام النبيذية، وهي الأيام الغائمة. وأيام الرغوة، وهي الأيام المشمسة.

في المرة الأولى التي دخلتُ فيها المكتبة، بقيت دائخًا، إذ عجزتُ عن تصديق ما رأيته: رفوف وخزائن وأسطح تفيض منها الكتب. كتب كبيرة وصغيرة ورفيعة وسميكة. كتب بأغلفة غليظة وأخرى لينة؛ بكعب وبدون كعب، وكتب أخرى أغلفتها بكل الألوان. كتب وكتب والمزيد من الكتب، وكي تكتمل الصورة، وجدتُ مقاعد وطاولات ليجلس المرء إليها داخل هذا الصمت الأزرق الغاطس أصلاً وسط صمت الصحراء عديم اللون، داعيًا إياه إلى متعة القراءة التي لا يضاهيها شيء. لا بُدّ أنّ كل النصوص المنشورة في العالم موجودة هنا. هذا هو ما فكرت فيه مشدوهًا. سأدركُ لاحقًا مدى ضآلة هذه المكتبة، وأنّ كل الكتب الضخمة التي سكنتها مجرد إصدارات من حقبة الخمسينيات وما قبلها. تُعطي المسألة انطباعًا بأنّ «الشركة» توقفت بعد هذا العقد عن شراء الكتب إلى الأبد.

تحولتُ إلى أحد أبناء رعيّتها الدؤوبين، وكدتُ أصبح متعبدًا لها. كنتُ من ضمن القلائل، أو ربما الوحيد، الذي يتوجه إليها لقراءة كتب الأدب. اعتاد الرجال أن يأتوا عامة للاطلاع على نصوص تقنية أو لتصفح الجرائد ومجلات المنوعات، أما النساء القلائل اللاتي توجّهن إليها، ففعلنها لمساعدة أبنائهن في الفروض المدرسية.

إنَّ وجودي المجرد في المكتبة بدا أشبه بالوجود في غرفتي المفضلة في بيت لم أحظ به قط. لم أكن قد عشتُ حتى هذه اللحظة في بيت يمكنني أن أسميه: بيتي، فملكية بيوت المستوطنات تعود أصلاً إلى «الشركة»، وحين يُسرّح أحد العاملين أو تتوقف آلات «المستوطنة» عن العمل، يجب على العائلة أن تسلمها وأن تحزم ممتلكاتها القليلة وترحل. وجبَ على

المرء أن يمضي دون أن ينظر خلفه. وفي حالة توقف الأشغال، كانت المُعسكرات كلها تُحل وتفكك وتُعبأ، قبل أن تُباع كل المواد الفائضة كخردة، فلا يعود سكانها أبدًا إلى بيوت وشوارع القرية التي نشؤوا وتزوجوا وأنجبوا ودفنوا موتاهم فيها. لهذا السبب، وجبَ على المرء أن يمضي دون أن ينظر خلفه، لكيلا يحدث له ما حدث لامرأة لوط (9) .

اعتدتُ أن أقضي وقتاً طويلاً في المكتبة، فاستكشفت في ظرف أشهر قليلة كل زوايا أرففها المكسوة بالتراب. لم يكن عدد المرات التي تُنظف فيها بمنفضة الريش هامًّا، فسحابة غبار كسَّارات الملح الصخري خيّمت ليلاً ونهارًا فوق أرففها وكتبها كقدر محتوم. لطالما توجهت يومياً لدى خروجي من العمل إلى المكتبة مباشرة، فأدهشتُ زوارها الذين نظروا إليّ بالتسامح ذاته الذي يُنظر به إلى الحكماء المجانين. تحليتُ بالصلادة اللازمة لتصفح كل واحدة من صفحات أربعة وعشرين مجلدًا عملاقاً من موسوعةٍ أغلفتها مجلدة، وتعلوها أحرف بارزة بروزاً خفيفاً ولم يتصفحها أحد قبلي قط. استغرقَ هذا العمل مني ثلاثة أشهر كاملة، يومياً من الاثنين وحتى السبت.

ذهبتُ لقراءة الشعر قبل أي شيء آخر، وبخلاف الشعراء الوطنيين الذين ظهروا هناك في عدة تصنيفات، قرأت أعمال جيل سبعة وعشرين الإسباني كلها -فمدير المستوطنة الأول لم يكن إسبانياً من فراغ- وبالمثل بعض شعراء القرن الذهبي. باتت السيدة المسؤولة عن المكتبة تعاملني من منطلق الأمومة، وبهذه الطريقة سمحت لي بأن أبحث وأبحث وفق هواي بين الأرفف المكنونة وأصعبها وصولاً.

«الشاعر الشاب». هكذا كانت تدعوني، فإذا بي أتضرّج بعدها بحمرة الخجل.

لطالما أحسستُ بثقل كلمة شاعر فوقي كهالة حجرية. ظننتُ في صغري أنّ الشعراء كلهم موتى، أنّهم كيانات عُليا أو لا مادية تقريبًا. بدا لي أنّ من يكتب أشياء شديدة الجمال من المستحيل مثلًا أن يسعل أو يبصق أو ينزف من أنفه. لم أكن قد رأيت حينها شاعرًا بشحمه ولحمه، وبدت لي إمكانية رؤية أحدهم في وسط الصحراء مستبعدة، وتكاد توازي احتمالية العثور على دب قطبي يسرح ويمرح وسط حرارة الرمال المتأججة. لا. أنا لم أكن شاعرًا، وإنما مجرد شخص لطيف يحاول أن يلتقط أنسجة الجمال من هنا وهناك بقلمه «فابر» مقاس ٢، قبل أن يدونها في أوراق دفتر الرسم البياني.

لم أتمكن قط من تبيّن سبب عجزي عن كتابة قصائدي إلا في دفتر للرسم البياني بقلم «فابر» مقاس ٢. مع ذلك، اعتدتُ وأنا في المنجم وسط أشغالي حين يأتي عفريتي لزيارتي -لأنني لم تكن لديّ مُلهمة وإنما عفريت- أن أكتب على عُجالة أبياتًا في الورقة التي ألفّ بها الخبز مع المُرتديلا، قبل أن أواصل سحب المجرفة والقرع فوق الإزميل، أو ضرب عارضة السكة بمطرقة تزن خمسة وعشرين رطلًا.

لطالما ذهبتُ في المرات التي لم أحظ فيها بشيء في يديّ، ولا حتى ورقة لفّ الخبز، إلى مناطق الردم بحجة إفراغ ما في جسدي، رغم أنّ الأمر تعلق بإفراغ ما في روحي، لأقرفص هناك، من دون أن أنزل سروالي، وأكتب أبياتًا فوق الرمل. ثم يأتي وقت الراحة، فأعود مع دفتري وقلمي حتى أصل إلى المكان الذي حددته بكتلة من الحجر، وأنسخ ما كتبته. هذا طبعًا إن وجدته،

ففي كثير من الأحيان حدث أن جاءت زوبعة رملية لتكنسه كله بسعادة وبلا رحمة. لطالما جزعتُ في مرات كثيرة من التفكير في أنّ أفضل أبياتي، وربما أكثرها إلهامًا وأجدرها بالدخول في أي أنطولوجيا، قد ذهبت مع الريح، لكن بمرور الوقت هضمتُ المسألة بخفة أكثر، بل وبِتُّ أؤكد لأصدقائي -بابتسامة غامضة على وجهي- أنّ زوابع صحاري البامبا هيَ نقادي الأدبيّون الأوائل.

مع ذلك، لم يدرك أحدٌ في المنجم أنني أكتب شعرًا. حرصتُ على ألا يعرف أحد، فأغلب هؤلاء الرجال الضخام الذين جاؤوا من حقول الجنوب بأيديهم الخشنة كالمحاريث وقماشة جسدهم الجيدة كخير ممثلين للجنس البشري افتقروا إلى التعليم، كما أن كتابة الشعر عندهم شأن يخص النساء أو أبناء الذوات رقيقي البشرة. لهذا اعتدتُ أن أكتب وأخفي قصائدي كأنّها أدلة إدانة لتهمة عقوبتها السجن، ولأنني دخلتُ المدرسة الليلية لأكمل تعليمي المتوسط، فكلما سألني أحد: لِمَ أستخدمُ القلم كثيرًا؟ قلت له: إنها الفروض المدرسية.

اشتهرت جماعة عمال السكة التي انضممت إليها بكونها أشجع من في المنجم. لطالما استدعاها المديرون صارخين عبر الهاتف كلما خرجت العربات عن القضبان ووجب إصلاح أي عَطب في السكة. أطلقوا علينا اسم «جماعة بينابينتي». كان بينابينتي أغلظ رؤساء عمال المنجم، والوحيد بينهم صاحب صلاحية اختيار أفراد جماعته؛ إذ امتلك رفاهية قبول أو رفض العمال الذين يرسلهم «قسم التعاقدات»، وكلما وجدَ رجلًا يبدو على وجهه أنه ليس مستعدًا لبذل العرق أصدر حكمه الحاسم:

- مَن وجههُ يبدو ثورًا مستكينًا. سِحسابيًا ([10]) لن يفيدني.

بينابينتي أَميّ و«سِحسابيًا» منطوق خاطئ لكلمة «حسابيًا» التي استخدَمها كثيرًا في عبارات في غير موضعها. حين وصلتُ وانضممت إلى جماعته كان في عطلة. في يومي الأول في المنجم وقع حادث ضخم وخرجت عربات عن مسارها، فأرسلني المشرف العام لدعم الجماعة في هذه الحالة الطارئة، رغم فرضية أنني قد عُينت في منطقة أخرى. خلال تلك الفترة ذاتها، سقط دون لولو، أكبر عمال السكة، مريضًا. حينئذ تقرر إبقائي في الجماعة إلى أن يصل رئيسها ليقرر إمّا قبول أو رفض استمراري في المنجم.

قبل يوم واحد من عودة بينابينتي، راهنَ كل مَن في المنجم من منقّبين ونقّارين وجرّافين وحفّارين وحمّالين بكل ثقة على أنّ رئيس الجماعة العابس، سيطردني «سِحسابيًا» بركلة في مؤخرتي، بمجرد وصوله.

قال العجائز مازحين: إنّ هذا هو ما سيفعله تحديدًا حين يرى الفتى الجديد ويديه الرهيفتين كعازف بيانو.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٦

أورا، يوم أمس حلمت بكِ. هل تحلمين أنتِ أيضًا بي؟ أتتذكرين أننا بخلاف البكاء والضحك على نفس الأشياء اعتدنا أن نحلم بالأمور نفسها؟ كان الحلم حزيناً واستيقظتُ وتذكرت يوم رحيلك. تقدمتُ الموكب وأنا أرفع صليباً أبيض بنفس طريقة حمل الراية في عروض المدرسة. بدت لي المقبرة على الجانب الآخر من مكبّ الردم فقيرة جدًا كحال معسكرنا. سارت ماما إلى جوار الجارات وبكينَ جميعًا وقلنَ: إن هذا العالم لا يستحقك. انسابَ عرق بابا متدفقًا وهو يحمل التابوت من دون أن يترك أحدًا ليساعده، ومن خلفه سار الأطفال بتيجان الورق. فجأة كدتُ أجنّ حين فكرت أنكِ أنتِ من تحملين الصليب وأنا تلك الموجودة في التابوت. في المقبرة، ثمة مدافن لأطفال مهودهم موضوعة فوق أكوام التراب، كأنهم لا يزالون نيامًا هناك، في الأسفل. مرّت ست سنوات ورغم ذلك يبدو الأمر كأنه أمس. ظللت أتذكر كل هذه الأمور حينما دق جرس المنبه واضطررت إلى الاستيقاظ. تقول العجوز المتزمتة ساكنة بيت الناصية إننا يومًا ما سنصبح معًا من جديد. أتمنى أن يحدث هذا! سلام يا أختي!

معلومة إضافية. كدتُ أنسى: وصل زبون جديد في المطعم. إنّه شاب جدًا. اسمه إلياثار لونا. سأحكي لكِ عنه لاحقًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٧

بعد سقوطه بالضربة القاضية، وصفَ «كيد» لونا ما حدث بـ«حظ المبتدئين». على أيّ حال، لم يشقّ على المدرب الذي ترأس أيضًا اتحاد الملاكمة العثور على عمل لروساريو فييرّو، إذ قال لمدير قطاع العاملين: إنّ راعيِ الماعز هذا مع التدريب الجيد والانضباط قد يصبح بطلًا وطنيًا. لطالما فضلت مستوطنات المقاطعة التعاقد مع عمال رياضيين ليبرزوا في دورة ألعاب مناجم الملح الصخري التي تحتضنها منطقة البامبا سنويًا.

حذّره ريتوريكو غونثالث وهو يزف له النبأ:

- لكن عليك أن تعلم، الوظائف الشاغرة الآن موجودة في المنجم فقط.

قال له روساريو فييرّو:

- أيًّا كان يا زعيم فهو أمر جيد. مايهمّ أنني سأسمع صوت ملعقة الرزق من جديد.

في المساء ذاته، بدأ روساريو فييرّو الأعمال الورقية والإجرائية الصارمة لتعيينه. بعدئذٍ بيومين، عقبَ فحص طبي متساهل، استيقظ لمواجهة يومه الأول في العمل. لقد قال لصديقه: «لم ينظر إليّ الطبيب أصلًا وجهًا لوجه، بل لم ينطق ولو كلمة واحدة».

خصّص له قسم الإسكان مكانًا في حجرة في سكن العزاب يشغلها ثلاثة عمال: اثنان من سكارى الورشة الميكانيكية، وأحد باعة البقالة في متجر مستلزمات «المستوطنة». وجد روساريو فييرّو

نفسه ينام في الدور العلوي لأحد الأسرّة، الأمر الذي لم يرق الكثيرين. لقد وقف الحظ إلى جانبه، إذ أدركَ لاحقًا أنَّ بعض الغرف يشغلها ستة عجائز، وأنَّ العدد في أوقات التعشيق قد يصل إلى ثمانية، وأنه دائمًا ثمة عامل يصل ثملًا ويتقيأ على زميله النائم في الفراش السفلي.

قال روساريو فييرّو:

- كما يحدث في الريف: الدجاج الموجود في الأعلى يتغوّط على ما هو موجود في الأسفل.

أكد له زملاؤه في الغرفة أنّ هذه أقل الأمور الإشكالية، لأنّ أسوأها يحدث في أيام صرف المرتبات، حين يقرر أحد ما اصطحاب عاهرة إلى الغرفة، فتأتي طقطقة هيكل الفراش وحفل الآهات الذي يصير عذابًا بالنسبة إلى البقية.

ما إن وقّع عقده، حتى طلب روساريو فييرّو أن يتناول وجباته في المقصف الذي يأكل فيه صديقه. لم يكن الطعام جيدًا هناك بسبب حجم الزبائن الضخم، لكنه أرخص من المطاعم الخاصة. يقولون إنّ روساريو فييرّو نام فوق قضبان هيكل الفراش أسبوعًا -وهي المدة التي استغرقها وصول طلب حاشيته من متجر المستلزمات- وأنّه اعتاد أن يستيقظ وعلامات حلقات نوابضه مرسومة فوق ظهره. رغم ذلك، لم يُلق كل هذا بظلاله على روحه المعنوية. علمنا لاحقًا أنه في طفولته كراع للماعز قد واجهَ قسوة الحياة ومصاعبها، وأنّه لا الجوع أو العطش ينالان منه.

«الطفل الحديدي». هكذا كانوا يدعونه في قريته.

اكتسبَ هذا اللقب بسبب صلادته في حياة التلال، وأيضًا بفضل الشجارات التي لم يره أحد يبكي فيها قط، رغم انتهائها بجسده ملطخًا بالدماء. ثمة شيء كان يستحوذ عليه كلما تشاجر ليصير قطًا جبليًا لا يشعر بضربات خصومه. منذ طفولته شعر بتفوقه وأحبّ تحدي الصبية الأكبر منه سناً أو جسدًا. تحداهم لأنّ الأمر راقه؛ لأنها رغبته، ولأنه كلما تشاجرَ تعاظم إحساسه بقوته، وشعر أنه في خير حال.

اعتاد أن يقول:

- أشعر كأنني بئر ملآنة حتى قمته.

حلمَ منذ أمد طويل بالابتعاد عن قريته، وبالرحيل إلى أي مكان حيث يُمكنه أن يصبح ملاكمًا محترفاً. حلمَ أن يفوز بالنزالات وأن ينافس على الألقاب، وأن يلف أحزمة البطولات حول خصره، وأن يرعى قطعاناً من النساء الجميلات المتعطرات من كل الأصناف والألوان عوضًا عن تقييده بمعيز الجبال النتنة.

لم يرَ سوى نزالَي ملاكمة طيلة حياته، وكلاهما عبر التلفاز. لم يكمل أيًّا منهما، لأنّ الكهرباء في قريته كانت تُقطع في الحادية عشرة ليلاً بالضبط، ولهذا لم يرَ في المرتين أي ملاكم رفعوا يده فائزاً. حدث نفس الشيء مع برنامج السينما الذي يُبث في العاشرة، إذ لم يحظ مرتادو حانة القرية الوحيدة التي امتلكت تلفازاً بفرصة مشاهدة نهاية أي فيلم. كان إحباطهم هائلاً إلى درجة أنّ بعضهم حلم بهذه النهايات، بل إنَّ أول ما اعتادوا أن يطلبوه إلى الغرباء القادرين على تحمل كلفة المشاهدة أن يتفضلوا عليهم ويحكوا لهم كيف انتهى الفيلم الذي عرضوه في التلفاز في ذلك اليوم في الساعة الفلانية.

في أولى محاولاته للتوجه نحو الشمال مع صديقه، مرضَ أبوه. رجتهُ أمّه أن يبقى بعض الوقت، فحالة الرجل ميؤوس منها ويوشك على الموت في أي لحظة. غادرَ صديقه بمفرده وبقي هو رغمًا عنهُ، لاعنًا أباهُ في داخله. لم يضعه أبوه قط في حسبانه، أما هو فلم يكنّ له مودة كبيرة، ومردّ الأمر، ضمن أشياء أخرى، إهانة تسميته بهذا الاسم. صحيح أنّ أباه أصر على التيمن بعذراء روساريو، لأنّه من ضمن المخلصين لها، لكن ما ذنبه هو بخصوص معتقداته؟ ثمة أمران سيظل ممتنًا له بخصوصهما على الدوام: لقب فييرّو الذي جاء ليصحح وداعة اسمه، فضلًا عن هبة العينين الخضراوين الجينية التي منحها له. «الأخضر الماجن». هكذا اعتادت نساء المكان أن يصفن لونهما.

لما ماتَ أبوه في النهاية، أبلغ روساريو فييرّو أمه أنّ اللحظة قد حانت، وأنه سيرحل في غضون أسبوع إلى الشمال، فمِن هناك يُمكنه أن يساعدها بشكل أفضل، ورغمّ أنه حظي بتعليم قليل ولم يعرف شيئًا سوى رعي الحيوانات، فقد أخبرها أنه سيتدبر أموره بشكل ما. لقد قال أبوه الأحمق حين أخرجه من الصف الثالث الابتدائي، وأرسله لرعاية الماعز: «القراءة والكتابة ستكفيان وتزيدان».

تذكّر روساريو فييرّو كل هذه الأمور على متن القطار المتوجّه إلى المنجم في يومه الأول في العمل وهو يتحمل برد البامبا المتوحش. تذكرها أيضًا في ذلك الصباح الذي انطلقَ فيه قبل يومين من موعد رحيله المقرر نحو الشمال في «القطار الطولي» ([11]) من دون أن يودع أحدًا، حتى أمه، وكل ما معه نصف قطعة من جبن الماعز، وفطير الخبز، وملابسه القليلة. دفعه المشهد الطبيعي الظاهر من نافذته طيلة نهارين وليلتين قطع فيهما

القطار الصحراء إلى التفكير في أنّه ذاهب إلى مكان للتطهر من خطاياه. مع مرور الأيام، قِيل في المستوطنة إنّ الملاكم جاء من قريته هربًا من الشرطة بعد أن ضربَ رجلًا وتركه في غيبوبة.

ينطلق قطار المنجم في السادسة والنصف صباحًا، لكنّه كان في السادسة بالضبط، قد تسلق إحدى عرباته، لأنه معتاد منذ أيام الجنوب على الاستيقاظ مع انبلاج الفجر.

يتكون القطار أصلًا من حاويات ماشية معدلة بثمن بخس لإيصال وجلب العمال من وإلى المنجم، إذ أضافوا مقاعد خشبية على امتدادها، لكنها كانت تخلو من الأبواب، فتتسلل رياح البامبا القارسة بلا رحمة طيلة الأربعين دقيقة التي تستغرقها الرحلة.

هكذا وصلَ إلى المنجم ولون جسده ضارب إلى البنفسجي من فرط البرد.

بعد أن توجّه إلى كُشك المدير وممارسته لبعض التدريبات العنيفة لكيلا يدخل مرتعشًا ككلب مسموم، عُين روساريو فييرّو في جماعة عمال السكة لتعويض زميل تعرّض لحادث. قال له المدير:

- أنت في فترة اختبار. بقاؤك من عدمه يعتمد على رئيس الجماعة.

استقبلوه بفضول في كوخ الصفيح المخصص لعمال السكة، إذ دارت نميمة قبلها حول أنّ هناك أحمق ضخمًا يهوى الملاكمة سيصل إليهم. تأجّج لهيب محرقة مصنوعة من عوارض السكة الخشبية والبنزين عند مدخل الكوخ، الذي افتقر هو الآخر إلى الأبواب. احتبى العجائز حولها جالسين وهم يتناولون الشاي،

ويتحدثون عن التلفيات الناجمة عن ثملهم وتفاصيل المشاجرة اليومية التي يشهدها مقصف العمال العمومي.

دخل روساريو فييرّو وحياهم بحسم بعبارة: «صباح الخير على الجميع». سعى لأن تبدو طريقته ونبرته رائقة، لكن نتيجتها قاربت حدّ التبجح. جلس بعدها إلى مائدة النحاس الأصفر، قريبًا قدر ما استطاع من النيران. لما رأيتُ أنه لم يجلب معه قدحًا للشاي، أعرته قدحي وأوضحت له مكان الماء المغلي.

قلتُ له:

- أنا إلياثار لونا.

ولأننا أصغر اثنين، تجاذبنا أطراف الحديث فورًا، أما البقية فبدؤوا رويدًا رويدًا، يدلون بدلوهم، وإذا بهم في النهاية يمطرونه بأسئلتهم: من أين جاء؟ كم من وقت مرّ عليه في عالم الملاكمة؟ وفي أي فئة وزن ينافس؟

الوحيد الذي لم يطرح عليه أسئلته كان رئيس العمال، إذ اقتصر كل ما فعله على جلوسه قرب نهاية الطاولة وهو يملّس شاربه الرفيع كسلك، ليراقبه في صمت، كأنه يقيّم قوة ومتانة هذا الداهية المصقول.

«ثمة شيء لم يجعل قلبي يستريح لهذا الفتى». سيقول لي بينابينتي هذه العبارة بعدها بفترة.

مايهمّ أنّ رئيس العمال بعد الانتهاء من الشراب الساخن وقبل خروجه من الكوخ، خصّص له خزانة، ثم أخبره باقتضاب:

- أنتَ من سيجلب القفل.

حينما أصبحت الجماعة مستعدة للخروج ومواجهة يوم العمل الجديد، أخرجتُ من خزانتي قميصًا صوفيًا مطرزاً وناولته له. فعلتُ الأمر كأنه ليس شيئاً يُذكر، أو كأنني لا أقدم له خدمة. قلتُ له:

-أهداني إيّاه صديق، لكنه واسع عليّ نوعًا ما.

حين أخذه مني، لم ينبس ببنت شفة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٨

أورا، اليوم أنا في حالٍ أفضل. حزنتُ كثيرًا في المرة الأخيرة التي كتبتُ فيها إليكِ. أتذكر حينما كنا نتحدث عما ستفعله كل واحدة منا إن ماتت الأخرى وكيف كنتِ تبكين من مجرد التفكير في الأمر. لكن لنترك الأحزان ودعيني أُخبركِ أنّ زبون المطعم الجديد جميل، لكنه أخرق بعض الشيء. أراقبه أنا وابنتا العم من ثقب المطبخ. نرى كيف يمضغ طعامه وكيف يشرب؟ وكيف يحرك يديه وهو يتحدث في المرات القليلة التي يتحدث فيها، وهذا لأنه صامت ومؤدب إلى أقصى حد. إنّه الوحيد الذي ينظف قدميه قبل الدخول ويقول: «بالهناء والشفاء يا سادة». يأتي دائمًا مغتسلاً وبشعر مصفف، وليس كحال البقية الذين يأتون من العمل مدفونين بالتراب. أتعلمين كيف ينظر إليّ حين أقدم له الأطباق؟ لا أعرف بعد! هل يعجبني أم لا؟ ربما نعم وربما لا. من المؤسف أنكِ لستِ معي يا أختي، خاصة وأنّه لطالما راقنا نفس صنف الفساتين والأغاني، وبالتأكيد كان ليروقنا نفس الرجال. هل تتخيلين الأفعال الشيطانية التي كنا سنفعلها؟ رغم أنّ بابا يقول إنكِ أكثر جدية مني، أعلم أنكِ كنت لتشاركينني في مزاحي. هل تتخيلين مثلاً مسألة تبادل خليلينا وسط عتمة السينما؟ ما إن أفكر في الأمر، إذا بي أموت من الضحك. عُهر ابنتَي العم بدأ يلتصق بي! أنتِ لا تعرفين كمّ القذارات التي تعلمانني إياها. حسناً، سأتركِ الآن. لديّ نشاط مع التحالف. لا تنسي أنني مرشحة للقب الملكة ولدينا عمل كثير كما تقول ماما. سلام!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٩

نشأتُ في مستوطنة «بوينابينتورا» التي صارت اليوم قرية شبحية وبتُ يتيمًا من ناحية الأم في عمر التاسعة. قبلها بأربع سنوات تقاعدَ أبي، الذي كان طيلة حياته عاملًا في المناجم وواعظًا في الحركة الخمسينية، ليعود إلى الجنوب. كل ما ودّه بعد إصابته بالسحار السيليسي، أن ترتاح عظامه في بابينار، مسقط رأسه، أما أنا، ابنه الوحيد، فقررت البقاء في المستوطنة. نجحت في الالتحاق بـ«الشركة» حينما أتممتُ عامي الخامس عشر لأعمل بمثابة مرسال، وهي إحدى الوظائف التي مارسها أطفال الصنعة. كنت سعيدًا بكسب قوت يومي من عرق جبيني.

لما بتّ وحيدًا، بدأت أنظم القصائد. قصائد الحب. أغرمت حتى النخاع وأنا في الثالثة عشرة بماريا مارغاريتا ([12]) . كانت تكبرني بعام ولها هواية غريبة: رواية الأفلام. لم أتجرأ قط على التحدث إليها، لأنها وفقًا لأقاويل الناس كانت رغم صغر سنها حبيبة الـ«غرينغو» مدير المستوطنة. لقد كتبتُ لها قصيدتي الأولى.

بعد وقت قليل من وصولي إلى سن البلوغ القانوني، توقفتْ مستوطنة «بوينابينتورا»، التي دفنتُ فيها أمي عن العمل، فانتقلتُ إلى مستوطنة «بدرو دي بالديبيا»، إحدى أكبر مستوطنات الملح الصخري في المقاطعة المركزية، حيث أعمل الآن. مرّت تسعة أشهر وأربعة عشر يومًا بالضبط على هذا الأمر. أعرف الوقت الذي مرّ على وصولي بالضبط لأنني سجلت تاريخه في تقويم جاءني هدية من تاجر اشتريت منه حذاء أزرق مريحًا. تظهر على التقويم صورة مارلين مونرو التي لا تنسى، وهي

واقفة فوق منفذ تهوية المترو بفستانها الأبيض المرفوع حتى عنقها.

شعرتُ في أغلب الأوقات أنني في حال جيدة في هذه المستوطنة، رغم تقلب أحوالي في بعض الفترات من فرط الوحدة الثخينة لصحاري البامبا.

هنا، وقعتُ عقدي الأول كبالغ وعثرتُ على مكتبة وشرعتُ أكمل تعليمي في المدرسة الليلية. فعلتُ هذه النقطة الأخيرة انطلاقاً من قناعتي البريئة بأن الدراسة ستُحسن من أبياتي. كل ما وددته في هذه الحياة أن تتطور كتابتي مرة تلو الأخرى. كان الشعر هو لوح النجاة لأتخطى السأم الفلكي للبامبا وعمل المنجم المخزي، ومعاملة العبد الصيني التي فرضها عليّ رئيس الجماعة.

«يبدو الأمر كأنهم أخذوا مني لحمًا حقيقيًا وجاؤوني بالـ«تشاركي» ([13]) ». هكذا علق بينابينتي حين عاد من العطلة واكتشف أنّ دون لولو لم يعد موجوداً في الجماعة، وأنّ من حل محله فتى أحمق الوجه ويداهُ كيدَي سكرتيرة مزهوة بنفسها. منذ ذلك الصباح تحديدًا، بدأ مضايقاته من دون كلل، فهو لم يطلبني بنفسه، ولهذا قال: «لو أنّ هذا الفتى يرغب في البقاء في الجماعة، فعليه إذن أن يبلع ريقه ويتحمل، وإلا فاللعنة عليه!».

اعتاد أن يُكلفني بأصعب المهام، فأنا من وجب عليه تعديل أشد عوارض السكة الصلبة التواء، وإخراج أصدأ البراغي، ودقّ أصلب الأرضيات بأثلم الأزاميل. ثمة مرات أمرني فيها رئيس الجماعة بمجرد وصولي إلى العمل بالعودة لجلب أداة تركها عمدًا، ومن دون حتى أن يتظاهر بنسيانها. لطالما فعلها في أيام إصلاح السكة، وبالأخص عند منحنى مدخل أو مخرج المنجم، وهذا

بعد قطع الكيلومتر الواقع بينه وبين الكوخ: ذلك الكيلومتر الذي يتمدد كعلكة تحت أشعة الشمس. كنتُ أعود من دون تمتمة أو دمدمة أو أيّ إيماءة احتجاج. لم يكن بينابينتي قد أدرك بعد أن السير هو أكثر ما يروقني في هذه الحياة، فمعه تخطر لي أفضل أفكاري وأفضل أبياتي.

مع كل هذا، بدأت أكتسب ثقته بعد مرور الوقت. لم أتذمر من أي أمر. لم أصل متأخرًا قط إلى القطار أو أغب عن العمل، ولطالما كنت مستعدًا لصعود التل كلما وقع طارئ وأتوا بحثاً عني في منتصف الليل، على عكس آخرين كثيرين اعتادوا أن يختبئوا أو أن يتمارضوا، وغيرهم ممن كانوا يعثرون عليهم في أحد المقاصف سكارى كطيور الغرة المدملجة.

أحياناً ونحن في ساعة الراحة، وكل الأمور على طبيعتها في المنجم، كنا نمنح أنفسنا رفاهية دردشة ما بعد الطعام، فينغمس بينابينتي في سماعي أتحدث عن الفضاء الخارجي، وأنا أُسمي الكواكب والأقمار والمجرات، مازجًا بين تفاصيل بدائية عن علم الفلك مع حكايات كتب الخيال العلمي والنظريات القائمة حول وجود الكائنات الفضائية. كلها أمور أدهشت وأذهلت روح رئيس العمال المتواضعة إلى أقصى حد.

اعتاد أن يُعلق بعدها:

- هذا التيس مثقف. سحسابيًا، يعرف أسماء كل الأشياء التي نُسميها «هذه الأمور».

بعدها، تحسنت معاملته لي.

في تلك الفترة، أغرمت مجدداً إلى حد الغباء، كما حدث مع فتاة راوية الأفلام. كان هذا أيضًا حبًا صامتاً. حبَّ فيلمٍ صامت، كما

قلتُ في نفسي، غاضباً من خجلي الذي لا دواء له.

اسمها ليدا، وهي ابنة صاحبة المطعم الذي كنت أطلب فيه وجباتي. إنها ابنتها الوحيدة. علمتُ لاحقاً أنّ لها أختاً توءَمًا ماتت وهي في الحادية عشرة. كانت ليدا طويلة ورشيقة وبشوشة وبيضاء كقلة قليلة من فتيات البامبا. من فرط جمالها، رشحوها لمسابقة «ملكة الربيع». لطالما جاء منظمو المسابقة راجين أبويها أن يسمحا لها بالاشتراك فيها منذ أكملت عمر الثالثة عشر، والآن بعد أن أكملت السابعة عشر، حصلوا في النهاية على موافقتهما.

قالت أمها دونيا ديولفينا آنذاك:

- صارت كبيرة لمعرفة ما هو جيد وما هو سيئ.

أغرمتُ بهذه الفتاة ذات مساء وأنا أتسكع في الميدان قبل دخول المدرسة. رأيتها ماضية نحو متجر المستلزمات وهي ترتدي فستاناً أزرق تنورته كالجرس، وشعرها معقوص في ضفيرة مسترسلة فوق كتفها، ويدها محمرة من الإمساك بحقيبة مشتريات فاتحة مصنوعة من كيس طحين، عليه عصفورَا كناري مطرزان يقفان فوق فرع بلون الليلك. كان جمال الفتاة، بهيئتها الشامخة، وببنيتها العظمية الرقيقة، وبمهابتها التي لا تدحض كملكة وسط الصحراء، يُذهب العقول. المشكلة فقط أنه بدا عليها معرفتها الزائدة عن الحد لهذه المسألة.

سألت كريسبو «الصيني» الذي ظهر في تلك اللحظة عند الناصية، وأنا حائر وأسير لانطباعي، إذا ما كان يعرف هذه الفتاة. كان بالطبع يعرفها، بل ويمكنه أن يقول لي اسمها لو دعوته إلى جعتين مثلجتين، فاليوم -لو أنني لم ألاحظ الأمر- يوم الرغوة.

قبلت ولم يخبرني كريسبو «الصيني» فقط باسمها، بل أخبرني بأنها ابنة السيدة التي يأكل عندها.

تذمرت شاكيًا:

- وكيف لم أرها من قبل؟

فوبخني:

- لأنك تقضي وقتك كله محبوسًا في المكتبة. دعني أقل لك، فقط كي تعلم، أنّ كل عزاب المستوطنة يسيرون كجراء صغيرة خلفها. حسناً، بل وبعض المتزوجين أيضًا. إنها ابنة دون سيرباندو فلوريس، أحد حفاري المنجم، وهو رجل هادئ وطيب إلى أقصى حد، لكن أمها دونيا ديولفينا ألكانتارا شأن آخر، وتعتني بها كرُفات مقدس. يقولون إنّ موت أختها كان غامضًا وإنّ «الراعية ديولفينا» -وهكذا يدعونها- غير مستعدة لفقدان ابنتها الأخرى.

في الليلة ذاتها، ألغيتُ الأيام الباقية في اشتراك مقصف العمال الذي أتناول فيه طعامي، وذهبت لطلب الطعام في بيت الفتاة.

في البداية، كفتني رؤيتها فقط. كلما وصلت إلى المطعم، ألقيتُ تحيتي على الحضور قائلًا: «بالهناء والشفاء يا سادة»، قبل أن أنظف قدميّ بدقة فوق ممسحة المدخل وكلمة «مرحبًا» المكتوبة فوقها، لأجلس لاحقًا إلى أكثر الموائد انزواءً. بعدئذٍ، كانت تظهر من المطبخ، كأنها تخرج في بداية عرض مسرحي، ومعها طبقان في كل يد، لتتحرك بين الموائد كأنها تقدم رقصة منزلية، وعلى وجهها ابتسامة تُخضعنا جميعًا.

لطالما قلتُ في نفسي مفتوناً: إنّ الابتسام هو الهبة التي وُلدت بها هذه الفتاة.

بعد بضعة أيام، وفي اندفاع شاعري، بدأتُ أترك لها أوراقاً صغيرة تضم أبياتاً، بالصورة ذاتها التي كان يترك بها بقية الزبائن حلوى وشوكولاتة. كنتُ أمررها سرًا من أسفل مفارش الكروشيه الصغيرة التي اعتادوا أن يضعوا فوقها زجاجات المياه وقوارير الزيت، لكنني أدركتُ بعدها أنّ ابنتَي عمومتها تشكان فيّ، لأنه بمجرد رؤيتهما لوصولي، كانتا تبدآن في التهامس والضحك بصوت خفيض كفأرتين مصابتين بالربو.

رغم ذلك، حينما مرّت بضعة أيام، لاحظتُ أنّ «الطفلة ليدا»، كما اعتادوا أن ينادوها في بيتها، تنظر إليّ بصورة مختلفة، ربما بحدة أكثر من البقية. دفعني هذا إلى أن أصدق خيالي كشاعر مغرم. في الحقيقة، لم يكن خيالاً، إذ ظهر أمام الجميع أنّ أطباقي تأتي أكبر من البقية: بطاطا أكبر، وشريحة لحم مطبوخ أضخم، وصلصة فلفل ملون أكثر مع طبق الفاصوليا وسجق الخنزير والإسباغيتي. بدأت أشعر بالأمل وتعهدت أمام نفسي: يومًا ما سأتحلى بالشجاعة وأدعوها إلى السينما.

حينما وصل روساريو فييرّو وانضم إلى الجماعة، كنت مغرمًا بها حتى منبت شعري. لقد أدخلتني «الطفلة ليدا» حقًا في حالة من الجمود. إذا كان الشِعر قد ساعدني على تحمل قسوة البامبا، فإنّ حبي لها -الذي تزايدَ مع كل نظرة وابتسامة وملامسة ليدها وهي تجهز طاولتي- حوّل كل هذا القيل والقال إلى بساتين وحدائق؛ إلى حدائق تغنت بها القصائد الرعوية التي قرأتها إلى حد التقديس في المكتبة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٠

أختي، دعيني أخبركِ بنميمة: بخلاف أنّ الزبون الجديد لا يتوقف عن النظر إليّ بعيني حمل مذبوح، فقد بدأ يترك لي أوراقاً صغيرة تضم أشعاراً. المسكين! يتركها من دون توقيع لكيلا نعرف من يكتبها. لا يعرف أننا رأيناه عبر الثقب حينما ترك الورقة الأولى. لكننا على أيّ حال كنا سنخمن فوراً أنه من يفعلها، فهو الوحيد الذي تبدو نظرته بالصورة التي يجب أن يكون عليها الشعراء؛ كأنها نظرة تائهة. تقول ابنتا العم روسي وماري وهما تكادان تموتان من الضحك: إنَّ وجهه يبدو كمصطبة أكثر من كونه وجه شاعر. دعيني أخبرك أيضًا أنهم أطلقوا على ابنتَي العم لقباً، كما حكى لي أحد الزبائن. سموهما «الثمانيتين» لأنهما ممتلئتان وتسيران دائمًا معًا ([14]*) . هذا هو ما يحدث حين تقضين حياتك تسخرين من العالم كله. أشعر بالاستياء الآن حينما تسخران من الشاب إلياثار، وهذا لأنّ أبياته بديعة. تجعلني أشعر بدغدغة شيء ما في بطني، رغم أنني لا أفهمها كثيراً. حسناً، هذا هو كل شيء. ترشُّحي للمسابقة يمضي كالصاروخ. سلام!*

١١

يشتهر عمال السكة بقسوتهم في العمل، وتحملهم للشرب، وتوحشهم في معاملتهم الرجولية. من شدة توحشهم يتراهنون في أوقات التفجيرات الكبرى ليروا من لديه الشجاعة الكافية ليقف في العراء على بعد أقل من أدنى مسافة تتيحها لوائح قسم الأمن. لطالما انتظر هؤلاء البرابرة أمام ذعر بقية عمال الأقسام الأخرى انفجار مئات الكيلوجرامات من المفرقعات، وتحملوا الأمر بثبات تحت السماء المفتوحة، من دون أن يرمشوا، وسط أطنان التراب والحجارة متنوعة الأحجام التي كانت ترتفع في الهواء قبل أن تسقط وهي تدوي كشهب مميتة إلى جوارهم. قِيل في المقاصف إنَّ من ضمن خدعهم الشائعة في سابق الزمن السماح لعجلات عربات السكة بدهس أصابعهم للحصول على تأمين الحوادث، بل وإنّ لُغد أيٍّ منهم لم يرتعش، كلما وضعوا أصابعهم فوق السكة والعربات آتية. كان لكل إصبع ثمنه، وأسوأ ما في الموضوع أنهم كانوا يفعلون ما يفعلونه لمواصلة الشرب بعد انتهاء ما معهم من أموال. ثمة قِصة ذات طابع كلاسيكي في المنجم عن دون أرنولدو تولوسا عامل السكة الذي تقاعد الآن. تقول القصة إنه وضع ثلاثة من أصابعه فوق قضبان السكة، الأصابع الثلاثة الداخلية ليده اليسرى. ثمة فارق ميّزه عن البقية: فعل دون أرنولدو ما فعله من أجل قضية محمودة -لو أنه يصح للمرء قول هذا- فالرجل كان له ثلاثة أبناء يدرسون وفي حاجة إلى المال لسداد مصاريف الجامعة. المُرعب في قصته ليس أنّ دون «أرنو» الطيب بات مبتور الأصابع، وإنما أنّ أبناءه الثلاثة أولاد العاهرة الذين باتوا مهندسين من حملة الشهادات ويستخدمون دفاتر الشيكات ويقودون أحدث موديلات

السيارات، يخجلون الآن من هوية أبيهم. فوق كل هذا، لم يتأخر زملاء جماعته بقسوتهم العبقرية في اختيار الألقاب -ولو ثانية واحدة- في ابتكار لقب وُصف بأنه من أفضل ألقاب المنجم وهو «القصة القصيرة»، في إشارة إلى لعبة الأطفال التي يمسكون فيها أصابع اليد واحدة تلو الأخرى ليغنوا: «هذه البيضة التي اشتراها الطفل، وهذا الطفل من وضعها في المقلاة، وهذا من رش عليها الملح، وهذا من قلبها، وهذا السمين الشقي من أكلها». لكن في يده مبتورة الأصابع تقلصت القصة إلى: «هذه البيضة التي اشتراها الطفل وهذا السمين الشقي من أكلها».

كانت القصص التي تُحكى عن بينابينتي من الصنف ذاته، فالرجل الذي بلغ طوله مترًا وخمسة وسبعين سنتيمترًا، ووزنه ثمانين كيلوجرامًا، وعمره تسعة وخمسين عامًا، اشتهر -بخلاف صرامته في العمل ومزاجه العكر- بأنه لا يخشى أحدًا. لم يسمح لأحد بأن يدوس له على طرف. قِيل إنَّ عاملًا من منجم آخر، وهو رجل أحول ذو ملامح إجرامية طوله متر وتسعون سنتيمترًا، تحداه في نزال وراء منطقة الردم بعد أن ملَّ من شتائمه وصرخاته الآمرة أثناء إجراء إحدى أشق عمليات تغييرات خطوط السكة التي تطلبت مشاركة ثلاث جماعات. رفضَ رئيس الجماعة التجاوب مع التحدي في وقته، إذ وجب أن يُسلم الخط في الثانية عصرًا وكانوا أصلًا متأخرين. رغم ذلك، بعد انتهاء العمل، حينما وصلوا إلى الكوخ لتناول الطعام، أخرج بينابينتي إصبع ديناميت من خزانته وأدخل فيه فتيلًا قطع منتصف جزئه العلوي، ثم جلس أمام من تحداه ووضعه فوق المائدة، وأشعل الفتيل بعقب سيجارته «ليبرتي»، وقال له بهدوء وسط ذهول الآخرين الذين خرجوا من الكوخ وكل منهم يدوس الآخر:

- الآن سنعرف مدى شجاعتك كديك برابر يا بنَ العاهرة! سِحسابيًا، من سيهرب قبل انفجار الديناميت ليس سوى شاذ قذر.

بالطبع لم يتحمل الرجل الضخم ذو العين الحولاء تضاؤل الفتيل المميت أكثر من أربع ثوان، إذ شحب وجهه من فرط الرعب، وانطلق موليًا الأدبار وراء البقية.

هذا هو صنف العجائز الذين وصلنا أنا والملاكم للعمل معهم في المنجم، وتعرفت أنا عليهم قبله بشهرين.

مكمن الفارق هو أنني تمكنت خلال فترة قليلة من اكتساب احترام رئيس الجماعة بسبب إصراري على العمل، وقراءاتي البدائية في علم الفلك على وجه الخصوص. لم يحظ روساريو فييرّو بهذا الأمر قط. أضمرَ له رئيس الجماعة حقدًا، رغم أنّ روساريو في البداية لم يدخر جهدًا في العمل إن استدعى الأمر، بل ولم يشكُ حتى من نقص المياه في تغييرات خطوط السكة، فثمة مرات وجب على المرء أن يقاوم فيها عطشه حتى إنهاء المهمة بسبب بُعد براميل الماء.

اعتاد بينابينتي أن يقول، أو بالأصح لطالما حاول أن يقول بطريقته الخاصة في الحديث، إنّ الملاكم ليس سوى كسول متنكر يعمل من دون اقتناع، وإنّ كل ما يفعله غرضه التدريب لزيادة صلابة جسده كملاكم. ثمة صواب في رأيه، فبعد مرور برهة، توقف روساريو فييرّو عن العمل كما في البدايات. ثمة مرات عديدة أمسكوا به وهو «يتثعلب»، كما كان يُقال عمن يتوانى في العمل ويختبئ هنا وهناك محتميًا بأي ظل، وهي أصلًا رفاهية نادرة الوجود لكوننا في مناطق استخراج الملح الصخري.

بعدها، بدأ يكتسب عادة التدرب على الملاكمة في أي وقت وبأي شيء يخدم غرضه.

بمرور الوقت بتُ أنا وروساريو فييرّو الوحيدين من عمال السكة اللذين لا يسترخيان بعد راحة الغداء، فبينما استغلت البقية هذه الدقائق للعب الـ«بريسكا»، أو للرقود ككلاب الشوارع في أي مكان ظليل، كان هو يبدأ في تدريب عضلاته، وأنا أجلس لقراءة أي كتاب أو لكتابة قصائدي.

كلما قرأتُ، اعتنيت بتغطية غلاف الكتاب بأوراق الصحيفة لكيلا يدرك العجائز أنها أشعار، وكلما كتبتُ لم أسمح لأحد أن يراقبني من وراء كتفي، سواء كنت في وسط ابتكار استعارة وأنا أتخيل رقصة حورية وهمية في الهواء، أو وأنا أمضغ قلمي «فابر» في محاولة للعثور على كلمة دقيقة توصلني إلى قافية رنانة، أما فروض المدرسة فكُنت أتعامل معها علناً أمام مرأى من الجميع ووسط صبرهم.

صرتُ أنا والملاكم صديقين، رغم اختلافنا كحجرين: أحدهما من صحراء البامبا والآخر من النهر. مثَّل أحدنا القوة والآخر الفطنة، وفق زملاء الجماعة الذين دللوا على مقولتهم بحجم أيدينا. يدا روساريو فييرّو الكبيرتان والعريضتان كمجرفة، ويداي الطويلتان والنحيفتان كنشال. مع ذلك، شعر كلانا بأن القوة والفطنة تركيبة ممتازة لصداقة مثالية.

كنا نذهب معًا إلى المنجم صباحًا، ورأسانا يتمايلان داخل الحاوية، قبل أن نعود معًا أيضًا في المساء من دون أن نتوقف عن الحديث، ثم نخرج بعدها من سكن العزاب إلى الشارع في صحبة بعضنا ليمضي كلٌ منا في طريقه إلى مطعمه؛ روساريو

فييرّو بحقيبته الرياضية التي سيتوجه بها لاحقًا إلى صالة التمرين، وأنا بدفاتري أسفل ذراعي لحضور فصول المدرسة الليلية.

ذات مساء، ألمح إليّ روساريو فييرّو بمقترح عدم حضور الفصول ومرافقته إلى صالة التدريب. لو تشجعت، يمكنني أن أصعد إلى الحلبة وأن أرتدي القفازات لممارسة الملاكمة، فتعلم القتال لم يكن أمرًا ثانويًا قط.

قال لي:

-قد تحتاج إلى الأمر في أي وقت.

فأجبته من دون أن أشك ولو للحظة:

- لا. شكرًا. بالنسبة إلى خناق وشجارات الشوارع، فأنا أسترشد بالمثل الصيني الذي يقول: «ثمة ثلاثمائة تكتيك في الفنون القتالية، وأفضلها هو أن تنطلق فارًا».

في عطلات الأسابيع التي لم ندخل فيها السينما، اعتدنا أن نتسكع مساء في الميدان، وأن نراقب الفتيات يتمشين وكل منهن تتأبط ذراع الأخرى، وسط انسياب أفضل الإيقاعات الموسيقية وأحدثها لفريق «فريق اللتر» العظيم عبر مكبرات الصوت المرفوعة فوق الكشك.

في المرات الأولى، انضمَّ إلينا الصديق الذي خطط روساريو فييرّو أن يأتي معه من قريته. كان الشاب، بمظهره المرتب وبصفائه المصقول من البرونز، قد أصبح من شهود يهوه بعد قليل من وصوله إلى المستوطنة. أدركت أنه لم ترقه بتاتاً نكات روساريو فييرّو مزدوجة المعنى، كما أثارت محادثاته عن النساء

على وجه الخصوص اشمئزازه. بهذه الطريقة، بدأ يبتعد عن هذه المحادثات، متحججًا بدراسات عن الكتاب المقدس تمتص وقته بصورة كبيرة.

قال الملاكم:

- في الماضي لم يكن هذا الأخرق منغلقًا هكذا.

بالنسبة إلى المسألة الأخرى التي أدركتها، وهي منطقية، فهي أنَّ الفتيات كرَّسن أكثر نظراتهن بوحًا إلي روساريو فييرّو، إذ كنّ يرمشنَ له بعيونهن ميتات من الضحك -وهي متعة في حد ذاتها- أما هو فاعتاد أن ينفق راتبه كله على ملابسه وزينته، ولم يتذكر إرسال المال لأمه قط. لطالما أهدى الفتيات ابتسامة نمر مستخف وهو يضبط شعره من الأمام، لينتهي الأمر بمواعدة أكثرهن جاذبية.

العكس حدث معي. صحيح أنّه ثمة مرات كرستْ فيها بعض الفتيات لي ضحكات واعدة، إلا أنني كنت مغرمًا بليدا. بالنسبة إليّ، لم تكن هناك امرأة أخرى في «المستوطنة» سواها. كانت قد قبلت منذ عدة أيام دعوتي للسينما، وتجرأتُ بعد عدة محاولات وسط ظلال الصالة المشعشعة على إمساك يدها، فانتقلتُ من هذا الاتصال المجرد إلى مكان آخر طوال الفترة التي استغرقها الفيلم. رأيت نفسي طيلة مائة وعشرين دقيقة أقضي حياتي مع هذه المرأة البديعة: تزوجنا، وأنجبنا أبناء، ودللنا أحفادًا، واحتفلنا باليوبيل الذهبي، وفي نهاية أيامنا جلسنا إلى حجر أمام بيتنا، سعيدين كزهرتين، لنتأمل غروب صحاري البامبا المرتفع.

قرب نهاية الفيلم، مع وصول صوت كمان الموسيقى التصويرية إلى أوجهِ، والشاب والفتاة يتحدان في قبلة غرام غير محسوبة، تجرأت على تقبيلها. تجاوبت معي بشفتين شبه مفتوحتين. لقد تركتني الشحنة الكهربائية التي شعرتُ بها حين لمست لسانها المثير دائخًا طوال ما بقي من الليل.

كان أمرًا مجيدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٢

أورا، أكاد أعضّ لساني لأحكي لك: اليوم قبّلت الشاعر. ما حدث أنني قلت بصوت مرتفع إنّ السينما تعرض فيلما لتوني كورتيس. أتتذكرين كيف راقتنا دائمًا عيناه الزرقاوان وشفتاه المموجتان؟ حسناً... لقد انتظر رحيل بقية الزبائن ودعاني لمشاهدة الفيلم. سألتُ ماما ووافقتْ. تقول إنّ الشاب إلياثار يطيب لها لأنه محترم ويضحّي بساعات راحته من أجل الدراسة مفكرًا في المستقبل، وهذه هي طينة الرجال الحقيقيين. هكذا، ذهبنا إلى العرض المسائي. اضطرَّ إلى الغياب عن المدرسة. قال إنها مرته الأولى ويفعلها من أجلي. اشترى لي في السينما حلوى «بيوليتا» وجلسنا في الصف الأخير. بدا المسكين متوترًا جدًا. ما فعله طوال الوقت هو الإمساك بيدي. لكِ أن تتخيلي كيف تعرّقتا! اضطررت بين الفينة والأخرى إلى تنشيف يدي بالفستان. قبلني فقط في النهاية. دعيني أحكِ لكِ أنه لا يعرف التقبيل. اضطررتُ أن أدخل لساني بنفسي. أظنّ أنه سيطلب ودي قريبًا. لم أحسم قراري، ففي ظل ترشحي لمسابقة الملكة، ليس لديّ وقت. ما رأيك يا أختي؟ هل أوافق؟ أخبريني أنتِ. سلام!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٣

ثمة حدثان عموميّان -أحدهما اجتماعي والآخر رياضي- أثارا حماسة سكان المستوطنة في تلك الأيام. الأول: بداية «عيد الربيع» الذي يتضمن اختيار الملكة، وعرض المركبات الرمزية ([15]) وحفل الرقص التنكري، والثاني زيارة وفد من ملاكمي سانتياغو المحترفين. سيواجه الوفد العاصمي الهواة المحليين في عرض ملاكمة يتزامن موعده مع الأيام الختامية لـ«عيد الربيع»، ضمن جولته عبر مدن الشمال.

انغمس كل منا في أحد النشاطين، فدون ريتوريكو غونثالث أخبر روساريو فييرّو أنه سيخوض مباراة استعراضية قبل أحد النزالات التمهيدية في أول ظهور رسمي له على الحلبة. بالنسبة إليّ، فقد مضيتُ في استعداداتي للمشاركة في مسابقة «أنشودة الملكة»، أحد الأعمدة الرئيسية لفعاليات «عيد الربيع». استعدَّ كل منا للأمر بطريقته: هو وسط ضجة كبيرة ومصحوبًا بمشجعين حمسوه وتمنوا له التوفيق، وأنا بصورة منعزلة ومتحفظة، محاولًا ألا يدرك أحد الأمر.

ضاعف روساريو فييرّو من تدريباته في المنجم، منتشيًا من اقتراب نزاله الأول أمام الجمهور وكونه بوابة لتحقيق أحلامه في عالم الملاكمة. هكذا، اعتاد أن يبدأ تمرينات الإطالة وتدريبات الملاكمة ظهرًا، بعد وردية العمل الشاقة، من دون أن يرتاح، عقب وصول الجميع إلى الكوخ منهكين إلى حد فتور الهمة، بأيدٍ متيبسة، وبأعين غائمة، وبمحيا كوجوه الكلاب المحتضرة. كان يفعل ما يفعله أمام حماسة عمال السكة، والمنقبين،

والكسارين، وعمال التحميل، وبالمثل أمام المقاومة الصامتة لرئيس الجماعة الذي لم يرقه هذا الفتى المتباهي.

في البداية، كان روساريو فييرّو يرتدي حذاءه المصنوع من نسيج القنب -رغم أنه لاحقًا صار يستخدم حذاء غليظ النعل، له طرف حديدي لتقوية ساقيه- ثم يخلع مبذلة العمل، ويبقى عاري الجذع، قبل أن يتوجه إلى ممارسة تمارين قفز الحبل ولكم الهواء وراء الكوخ ونظرة بقية العمال معلقة به باهتمام. مع ذلك، فأكثر ما راق العجائز، الذين سموه «كاسيوس كلاي المنجم»، لحظة ارتدائه لقفاز الملاكمة القديم الذي وفرته له صالة التدريب؛ ليشرع في ضرب كيس اللكمات الرملي الذي علقه وراء كوخ المتفجرات. ورغم أنَّ الكل اشتكوا من أن أبخرة الديناميت تصيبهم بالصداع ولهذا كانوا يقتربون بأقل صورة ممكنة من البارود، بدا أنَّ تلك الرائحة اللاذعة تملؤه بالطاقة والقوة.

لطالما ضحك بوقاحة قائلًا:

- إنها كجرعة فيتامينات سريعة المفعول.

بالنسبة إليّ أنا ومشاركتي في «عيد الربيع»، ففي ظل ثقتي في أنَّ ليدا ستكون المرشحة الفائزة، تفانيت في كتابة «أنشودة الملكة» المُستلهمة حصريًا من جمالها الشخصي، وانغمست في نظم قصيدة مفصلة لمقاسها ووزنها. اعتبرتُ أنَّ هذا النص سيصبح إعلانًا مثاليًا عن حبي لها، لأنني آنذاك لم أكن قد طلبت ودّها بعد. تخيلتُ أنني سأصعد في تلك الليلة المجيدة فوق خشبة المسرح تحت أمطار زهور جذور الثعبان الهندي وسط الموسيقى والألعاب النارية، عقب تنصيبها كجلالة «الملكة ليدا

الأولى»، لأقف منتصباً بصفتي شاعرها المكلل قبل أن أبهرها بتلاوة قصيدتي؛ لأغويها وأجذبها كالمغناطيس؛ لأباغتها بغرامي بصورة لا رجعة فيها.

وسط انغماسي في حالة من النعيم، قضيت أيامي ولياليّ أكتب وأمسح وأصحح وأصقل كل بيت وكل مقطع وكل استعارة إلى حد الهذيان. بدا ما أفعله كمزمور عن الغرام لا «أنشودة الملكة». كتبتُ في المنجم، وصححتُ في الغرفة، وأعدتُ الكتابة في فناء سكن العزاب، قبل أن أصحح كل هذا من جديد فوق مقاعد الميدان. ثمة مرات استيقظت فيها في منتصف الليل لتغيير صفة ما لأنني حلمت بلفظ أفضل، وإذا بي في اليوم التالي أعيد وصفها من جديد. اجتهدتُ في كل كلمة كأنَّ مسار النجوم في دورانها حول الكون يتوقف عليها، لا مستقبلي وحده كشاعر.

كنت أفكر بروح متأججة في أنَّ هذه هي الطريقة الوحيدة لصنعة الشعر.

رغم أنَّ تفضيلاتي الرسمية في آخر الأوقات مالت نحو الشعر الحر، إثر شعوري بأنّ القافية ليست جوهرية وأنّ مقياس المعزوفية الأفضل هو إيقاع التنفس الطبيعي، فقد اجتهدتُ في صياغة أبيات موزونة ومقفاة، لأنّ أعضاء لجنة التحكيم أساتذة في اللغة الإسبانية، وهؤلاء يميلون غالباً إلى الشعر ذي النزعة الكلاسيكية. كنت متأكدًا من هذا.

بهذه الطريقة، بدأتُ أكتب الأنشودة في صورة «سونيته»، ثم استشعرتُ بعدها أنَّ نظامها القائم على أربعة عشر بيتاً ثابتاً لا يكفي لاحتواء جمال ليدا الفياض، ولا حتى بإضافة تذييل نهائي.

حينئذٍ، حاولت كتابتها بأوزان الـ«رومانثي»، لكن إيقاعها بدا لي شعبيًا أمام بهاء ملكة مثل ليدا. في النهاية، اخترت كتابتها كسداسية ملكية، وهو مسمى أكثر من ملائم لأنشودة لملكة، بأبيات من أحد عشر مقطعًا، وبقافية رنانة يتماشى فيها البيت الأول مع الثالث، والثاني مع الرابع، والخامس مع السادس. هكذا، بدأ زملائي في الجماعة ينظرون باستغراب إلى كيف قضيت وقتي كله وأنا أعدّ في الخفاء على أصابع يدي. لم يعرفوا أنّ ما أعدّه بإصرار لم يكن الأيام المتبقية على قبض الراتب، كما مزح بعضهم، وإنما الأحد عشر مقطعًا لكل واحد من الأبيات.

وكل منا منغمس في شأنه، صرنا هدفاً لمزاح عمال المنجم القاسي والحارق كالملح الصخري المتأجج، لا فقط في جماعتنا، وإنما في المنجم كله. أطلقوا على روساريو فييرّو لقب «كيد تشاريتو»، لكنهم فعلوها عن بُعد وبصوت خفيض. لم يتجرأ أحد على مناداته هكذا في وجهه، أما أنا فسموني «آكل الكتب»، لأنهم لم يعهدوا رؤية زميل يقرأ كتبًا في المنجم.

«وكتب من دون رسومات يا رجل!». لطالما تعجبوا من الأمر بهذه الصورة.

بخلافي أنا وروساريو فييرّو، ضمّت الجماعة أيضا كريسبو «الصيني» ابن مدينة توكوبيا الثلاثيني الذي يبدو بهلواناً، ويقضي اليوم كله يلقي النكات وينفذ حركات من عالم السيرك، و«الفأر الأبيض» وهو رجل أمهق قليل الكلام قادم من إحدى قرى ريف كوريكو، وجهه مسنون كالفئران وبطل مطلق في لعبة الداما ([16]) ، ورئيس الجماعة بينابينتي القادم من أوبايي والذي

كان أباً لأحد عشر ابناً ولم يتجرأ أحد قط على ابتكار لقب له، بشاربه الذي يبدو كشارب بانتشو بيا ([17]) .

رغم أنَّ علاقتنا نحن الخمسة كانت جيدة، فإنني أنا والملاكم شكّلنا ثنائيًا منفصلاً. صرنا صديقين مقربين وقضينا وقتاً طويلاً معًا إلى درجة أن العجائز بدؤوا يضايقوننا ويقولون إننا مخنثان مقطوعا الرجاء. تعاملنا مع الأمر بخفة، إذ إننا تعلمنا منذ البداية أن الضحك على مزاح عمال المناجم هو أفضل شيء، فمن ينزعج أو يسعى لتصنّع الجدية ستصبح أموره في حالة يرثى لها، لأنهم كانوا قادرين حتى على دفعه إلى البكاء.

مع ذلك، مهما قصّ عليّ روساريو فييرّو أمورًا عن حياته كراع للماعز، مع الاعتناء بأدق التفاصيل، وتطرقه خلالها إلى مغامراته الجنسية -مثل تلك التجربة التي عاشها مع نعجة بلا صاحب سمّاها أطفال المكان «ميس تشيلي»- فلم أتجرأ قط على إخباره بأنني أكتبُ قصائد. لم أقل له شيئاً أيضًا عن اشتراكي في مسابقة «أنشودة الملكة»، وبالطبع لم أخبره عن مدى ولهي بإحدى المتسابقات.

دارت محادثاتنا، أو بالأخصّ مونولوجاته، في آخر الأيام حول نزال الملاكمة القادم فقط. كان يسير عبر الشوارع متسلحًا بتفاؤل حديدي وهو يثب قبل أن يُطلق توقعاته أمام أي شخص يود سماعه حول أيّ دقيقة وفي أيّ جولة سيُسقط المخنث العاصمي الذي سينازله بالضربة القاضية. سلّى نفسه باستباق الزمن، وبالحديث عن كيف سيرفع الحكم يده والطريقة التي سيحييه بها الجمهور متحمسًا، وعن عدد الجرائد والمجلات التي ستظهر صورته على صفحاتها الرئيسية فائزاً بالإجماع.

قال لي:

- سترى كيف ستطاردني النساء صعبات المنال كأنهن ذبابات حولاء.

ذات مساء، خطرَ لي أن أقول له إنّ عليه أن يتغذى جيدًا إذا ما كان يسعى إلى الفوز بهذا النزال، فالكل يعرفون أنَّ الدهن في طبيخ المقصف الذي يرتاده أقل من دهن حساء عصفور مريض، وأنَّ عليه أن يبحث عن مطعم عائلي جيد، ولهذا دعوته إلى مطعمي.

قلت له:

- يقدمون هناك أكثر الأطباق امتلاء وأكبر قطع اللحم. ستتحول إلى ثور في غضون أيام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٤

أختي، لديَّ أنباء أخرى: أتصدر التصويتات. فزتُ في فرز الأصوات الأول. ناتاشا في المركز الثاني. هذه الشقراء التي تضفر شعرها حتى خصرها. هل تتذكرينها؟ الصراع بيني أنا وهي، رغم أننا أربع متنافسات. انقسمَ الناس إلى قسمين: أنصار ليدا، وأنصار ناتاشا. سترى هذه الشقراء التي تشبه حساء بلح البحر كيف سأفوز عليها. بالحديث عن شيء آخر، دعيني أخبرك أنَّ زبوناً جديدًا جاء إلينا. جلبه الشاب إلياثار. إنه ملاكم. عيناه خضراوان إلى حد الحمى. تكاد ابنتا العم أن تُصابا بالجنون. إنّه وسيم جدًا إلى درجة أنّ ماما التي توقفت عن استقبال الزبائن الجدد، لم تتمكن من رفضه. تفسد ابنتا العم الأمر لأنّ له اسم امرأة. اسمه روساريو لكن لقبه هو فييرّو، ما ينقذه. أتودين أن أخبرك شيئاً؟ أحبُّ طابعه السافل المختلف تمامًا عن الشاب إلياثار، الذي لم يطلب ودّي رسمياً وطباعه جديرة بطفل طيب. يبدو لي خائفًا من الأمر وكأنه مثلاً سيطلب يدي. أتساءل أحياناً: لو أنكِ كنتِ هنا، من منّا كانت ستتزوج أولاً؟ ربما كنا سنفعلها معًا، وكل منا تشع جمالاً في فستانها الأبيض كحال أغنية أنطونيو بريتو. جميل، أليس كذلك؟ سلام يا أختي! سأحكي لكِ المزيد لاحقًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٥

كان يوم الاثنين الذي اصطحبتُ فيه روساريو فييرّو إلى مطعمي غائمًا. طفتْ في سمائه التي تدلت بطنها أسرابٌ من السحب الرمادية الفاتحة. كان واحدًا من تلك الأيام التي هبّ فيها نسيم خفيف. لو وصف كريسبو «الصيني» هذا اليوم، لقال إنه يوم نبيذي. استغل أطفال البامبا الأمر للخروج والتسلية، فلعب أصغرهم لعبة «سان ميغيل»، وأكبرهم لعبة «الخاتم والقفل».

أمَّا الكبار، فجلسوا عند أبواب بيوتهم: الآباء في قمصانهم الداخلية، والأمهات وهنّ يحكنَ الأحذية. نظروا إلى الأطفال وهم يلعبون وكلهم شوق إلى هذا العمر الذي سكنوا فيه بلد الطفولة الضائعة.

امتنَّ كل من في البامبا لهذه المساءات المنعشة المكسوة بمظلة السحب الصغيرة البيضاء، ومع ذلك، لطالما قال أكبر عمال المناجم سناً: إنّ هذه السحب فأل شؤم لا مناص منه، وإنذار بقرب حدوث شيء سيئ.

لدى خروجنا من سكن العزاب للذهاب إلى المطعم، قلت لروساريو فييرّو أن يستعد، فنحن سنمضي لرؤية أجمل امرأة في المعسكر. لم أقل له إنها الفتاة التي خبلتني، وإنني على وشك طلب ودّها.

بينما نمضي عبر الشارع الرئيسي المزدحم بالعمال الذين نزلوا لشرب الشاي في المقاصف وطعامهم في أيديهم، قلتُ له إنها ابنة صاحبة المطعم، وإنّ كل الزبائن مغرمون بها.

سمع روساريو فييرّو كل شيء، كأنه لا يأبه، بل وبدا أنّ أكثر ما يشغله هو ألا يفسد الهواء شعره، وأن تستمر الرياح في رفرفة تنانير الفتيات اللاتي مررن إلى جوارنا. إلا أنه توقف حين أنهيتُ حديثي ونظر إليّ وجهًا لوجه، ورفع قبضته اليسرى ليُراهن بنبرة ساخرة بأصابع يده الحديدية الخمسة على أنه لم يخطر على بال الحمقى الذين يتناولون الطعام هناك تجاذب أطراف الحديث مع الفتاة.

ومن دون أن يفعل شيئاً آخر، استأنفَ السير مجدداً.

سار بتراخ مبالغ فيه، بتلك الصورة التي يتخيل المرء أنَّ بطلًا عالميًا توِّج للتو سيسير بها. تقدّم وهو يوجه خليطًا من اللكمات إلى الهواء، ماضغًا علكة النعناع التي فتحها منذ قليل، والتي كان فمه لا يخلو منها مؤخرًا. قال وهو يمضي في الطريق إنه متأكد من أنّ كل ما توده هذه الفتاة المسكينة هو أن يتحدث معها أحد هؤلاء المخنثين لتضاجعه كمجنونة.

دافعتُ عنها بنبرة مستاءة:

- لا أظن أنَّ ليدا من هذا الصنف.

نظر إليّ الملاكم بطرف عينيه:

- أنت أيضًا معجبٌ بها.

ثم قفز بعدها من فوق كلب مستلق إلى جوار عمود إنارة وأضاف:

- عليك أن تتحدث معها إذن يا رجل، وإلا سيظهر شخص آخر أذكى منك وسيصطادها.

- لا أظن أنّ النيل منها سهل.

توقف روساريو فييرّو فجأة ونحن على بعد نصف مربع سكني من بيت ليدا. وضع يده فوق كتفي، وصنع فقاعة بالعلكة، وفرقعها، ثم قال بوقار:

- صديقي، في هذا العالم ثمة نوعان من النساء: أولئك اللاتي يرغبن في المضاجعة، ومن يطرن. هل رأيت ذات مرة واحدة منهن تطير؟

أسرَ روساريو فييرّو الجميع في الفترة التي استغرقها تناول فنجان الشاي الأول فقط. أغلب الزبائن رأوه أو سمعوا عنه قبلئذ، لذا لم يتوقفوا عن سؤاله من مكانهم فوق موائدهم، وبأفواههم الممتلئة عن تفاصيل نزاله القادم. ظلت ابنتا العم في جيئة وذهاب من المطبخ إلى غرفة الطعام ومن غرفة الطعام إلى المطبخ، وهما تتشاجران بخصوص من منهما ستخدم صاحب العينين الخضراوين بشكل أفضل، أما دونيا ديولفينا، التي علقت لافتة فوق النافذة تقول فيها إنّها لن تستقبل زبائن جدداً حتى إشعار آخر (لأنّ لديها أصلاً عدداً تعجز عن خدمته)، فاضطرت إلى استثنائه وسجلته في دفتر حساباتها.

قالت له بدلال:

- هذا فقط لأنك صديق الشاب إلياثار. أنا أقدره كثيراً.

حتى دون سيرباندو فلوريس، الذي لم يخرج ليتحدث مع الزبائن قط، ظهر في ذلك المساء في غرفة الطعام بقميصه الداخلي وبحمالتيه الحمراوين الأبديتين، وتناول وجبة خفيفة معهم ثم جلس ليأكل العاقبة مع الزبون الجديد، ويحكي له عن ذلك الزمان الذي كان فيه رياضياً.

قال له:

- كنت عداء للمسافات الطويلة. أحد أفضل العدائين يا فتى.

وحدها ليدا بدت منيعة أمام سحره، بل إنها لم تكرس له ولو نظرة واحدة أو حتى إيماءة إضافية. قدمت له الطعام بالاهتمام ذاته، بخطوات راقصة الباليه ذاتها، وبنفس الابتسامة الملائكية التي قدمت بها الطعام للجميع. الجميع باستثناء دون ناثاريو المسؤول عن نظافة الحمامات العمومية، والذي لم يقترب منه أحد كثيرًا بسبب رائحة جسده السيئة.

مع الانطلاق الرسمي لـ«عيد الربيع»، وكما يحدث دائمًا، صارت شوارع «المستوطنة» -الموحشة والصامتة في أغلب الأحوال- دغلًا من جذور الثعبان الهندي والضحكات والهتافات. لم يكن أفراد التحالفات الداعمة للمرشحات للقب وحدهم من حولوا الأمر إلى موكب ضوضائي ساخر عامر بالسعادة خلال هذين الأسبوعين الاحتفاليين، وإنما كل السكان من عمال وموظفين ومديرين، إذ كانوا هم أيضًا يتنكرون ويَطلون وجوههم ويرتدون الأقنعة.

كما قال «الشاعر المكلل» الأخير في «أنشودة الملكة» التي ألفها ونشرتها مجلة «البامبا»: صحيح أنّ بداية الربيع في صحرائنا تمر بسرعة خاطفة لأنه ما من شرانق تتفتح، ولا فراشات لتبسط أجنحتها، ولا عصافير لتغرد، لكن هذا الحفل السنوي خير عوض، ففيه تتبرعم الضحكات كالزهور، وتبسط الموسيقى أجنحتها كالفراشات، ورغم غياب عصافير الحسون والكناري، فإنّ أهالي البامبا يرفرفون ويغردون بأنفسهم من فرط سعادتهم.

في يوم عرض المركبات الرمزية، اجتهدَ أنصار ليدا وأنصار ناتاشا والتحالفان الآخران المشاركان في المسابقة في إنشاء وتقديم أكثر المركبات أصالة ولفتاً للانتباه. صمّم تحالف ورش السكك الحديدية مركبة عليها كينغ كونغ مُشعر ارتفاعه أربعة أمتار، وهيكله من السلك وحشوهُ من عوادم القطن. كان يزأر وقادرًا على تحريك ذراعه كأنه يضرب صدره، أما يد الذراع الأخرى المقولبة على هيئة مقعد، فجلست عليها مرشحتهم. ثمة تحالف آخر شكّله المدرسون وموظفو المكاتب، شارك بمركبة رمزية حول عملية تصنيع الملح الصخري.

بعد أن أبقوا أمورهم طي الكتمان وبنوا مركبتهم في مستودعات ورش السكة، فاجأ أنصار ناتاشا الجميع ببرج قَرْوَسَطي ضخم ينتهي بنافذة صغيرة في جزئه العلوي تطل منها مرشحتهم، التي اشتهرت بضفائرها الطويلة، كأنها تمثل قصة ريبانزل.

من ناحيته، قدَّم تحالف ليدا بجعة بيضاء مذهلة مرفوعة فوق هيكل حديدي ومكسوة بزهور من الحرير. تألقت البجعة وسط ليل البامبا وهي مضاءة بالكامل بمصابيح الفلورسنت، برقبتها التي بدت كعلامة استفهام، كما قال روبن داريو في استعارته الشهيرة، وهو الأمر الذي كرره صاحب الفكرة مازحًا. من جانبها، جلست ليدا بمهابة فوق عنقها متشحة باللون الوردي.

وسط الموكب الساخر وتحت أمطار الورق المنثور والأبواق التي تصم الآذان والغبار الأبيض الصاعد من بين أقدام الجموعِ، مضيتُ عبر الشوارع في طريقي وراء مركبة ليدا. تساءلتُ دهشًا ما إذا كان صاحب فكرة البجعة يعرف أسطورة زيوس الذي لم تخطر له فكرة أفضل من تحويل إحدى العذارى إلى بجعة ليستحوذ عليها. هذه العذراء كان اسمها ليدا.

رغم الجلبة الاحتفالية، لم أجد أنا أو روساريو فييرّو وقتاً كافياً لتشارك هذه الأجواء الكرنفالية التي غمرت الجميع. كان روساريو فييرّو يقضي وقت فراغه في صالة التدريب والركض عبر سهول البامبا؛ لأنه لم يستهدف شيئاً سوى النزال.

بالنسبة إليّ، فقد قسّمت وقتي بعد العمل بين الدراسة من أجل امتحانات نهاية العام وبين الاطلاع على أنشطة تحالف ليدا، أما ليلاً وأنا راقد فوق فراشي، فظللت أحلم وأصوب من دون كلل أو ملل أبياتي لـ«أنشودة الملكة».

وجبَ عليّ فقط أن أجعلها مثالية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٦

أختي، أنا سعيدة جدًا. بعنا كمية كبيرة من الأصوات وفزنا في مسابقة المركبات الرمزية. صنع عمال المنجم لي بجعة مضيئة بالكامل تحرك عنقها وهي تتقدم. جلستُ على البجعة بفستان وردي من قماش الأورجانزا وشال بنفس اللون، ومضينا بها عبر الشوارع. شعرت أنني إلهة. رأيتُ الشاب إلياثار من الأعلى بين جموع الناس. لقد قطع المسكين المعسكر بالكامل وهو يشير إليّ، أما أنا فنظرتُ لأبحث عن الشاب روساريو، لكن يبدو أنه لا يهتم سوى بالنزالات. لا أعرف ما الذي يحدث معي بخصوص الملاكم؟! حينما أقدم له الطعام، أبقى وقتاً أطول عند مائدته وأبتسم له برغبة أكثر، بل ولا ألقي بالًا إن لم يأت إليّ بهدايا مثل بقية الزبائن. هل المسألة أنني أقع في غرامه؟ تقول ابنتا العم إنها الإثارة، فأضحك من كلامهما فقط. يا لها من خلاعة، أليس كذلك؟ سلام يا أختي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٧

امتلأ ملعب الملاكمة في ليلة السبت لمشاهدة النزالات بصورة لم تشهدها «المستوطنة» إلا في مرات قليلة، وجاء «فريق اللتر» الغنائي بكامل أعضائه لتلطيف أجواء وصول الجمهور عند بواباته، تمامًا كما جرت العادة في كل الأحداث ذات الأهمية الاجتماعية في البامبا، بما فيها من احتفالات وإضرابات وفعاليات رياضية أو جنائزية تتعلق بشخص هامّ في عالم المستوطنات.

أعلنت إحدى اللافتات عن البرنامج: النزال الأول في وزن خفيف المتوسط بين «كيد» لونا (صاحب الأرض) وجلين أركوس (الزائر)، أما الثاني ففي الوزن ذاته بين روساريو فييرّو (صاحب الأرض) وخصمه باتريثيو ماتورانا (الزائر)، أما الثالث ففي وزن الديك بين ماريو ساليناس (صاحب الأرض) وأميريكو أندرادي (الزائر)، وفي النهاية سيتواجه نجم «المستوطنة» ريكاردو روخاس مع بطل تشيلي مرتين أمادو «سونورا» كاستيو.

سيُدير أول نزالين حكم جاء مع الوفد العاصمي، في حين سيدير النزالين الآخرين روبرتو بايثا، أحد أشهر شخصيات «المستوطنة»، الذي بخلاف نزالات الملاكمة لطالما أدار مباريات كرة القدم، وكرة القدم المصغرة، وكرة السلة، والكرة الطائرة، وأيّ منافسات رياضية في حاجة إلى حكم. أطلقوا عليه «عمّ المبالغات» بسبب أدائه المسرحي الكاريكاتوري.

أشارَ البرنامج أيضًا إلى أنّ نتيجة آخر فرز للأصوات ستعلن بعد انتهاء النزالات ليعرف السكان اسم «ملكة الربيع» الجديدة، على أن تتوج في اليوم التالي في الحفل الراقص الكبير. لذا، وجبَ على

المرشحات الأربع أن تحضرنَ في تلك الليلة إلى الملعب في صحبة تحالفاتهن. ستقول أخبار صفحات المجتمع في مجلة «البامبا» لاحقًا: «جَسّدت الفتيات ببراعة جمال وتواضع المرأة البامبوية وهنّ جالسات في مكانهنّ الشرفي إلى جوار سلطات وإدارة «الشركة»».

انتظارًا لانطلاق السهرة، أطلقت الجماهير بين الفينة والأخرى ضحكات بعلو الصوت احتفالًا بالظهور الباسم المعهود للنكّاتين، وبالأخص مع دعابات أشهرهم: كابيثون تشابيث، فيما ظلّ السباب بين إياب وذهاب من هذا القطاع إلى ذاك كصواريخ الألعاب نارية.

«أنا مستعد لمنازلة العالم كله».

يقولون إنّ روساريو فييرّو تفوّه بهذه العبارة، ومنشفته فوق رقبته بعد أن دهن وجهه بالفازلين، وهو يوجه لكمة أمامية لظله الملتوي المنعكس على جدران غرفة الملابس المصنوعة من الزنك، حينما سأله دون ريتوريكو غونثالث كيف يشعر في أولى خطواته نحو تحقيق لقب بطل تشيلي.

أول ثلاثة نزلات من ستّ جولات والنزال الأخيرة من ثمان. كان ريتوريكو غونثالث مدربًا للملاكمين المحليين الأربعة، ومانيوغو مساعدًا له. لقد مارسَ دون ريتوريكو ومانيوغو الملاكمة في مستوطنتين مختلفتين خلال شبابهما. بدأ مانيوغو مسيرته في مستوطنة «زهرة تشيلي» وتميّز بشجاعته التي تقارب حد الغباء: ذات مرة قَبِلَ منازلة ملاكم يفوقه بوزنين وانتهى به المطاف بفك مشروخ وبأنف مكسور إلى ثلاثة أجزاء. بالنسبة إلى دون غونثالث، فبدأ يلاكم في معسكر «الزمردة» حيث اشتهر

بأناقة أسلوبه عن ضرباته الحاسمة. لطالما أزعجه مانيوغو بمزحته الدائمة قائلًا: «كان يرقص كدبور، ويلدغ كفراشة». ورغم مشاركته في نزالين في العاصمة، وإيمان الكثيرين بأنّ لديه ما يؤهله ليصبح بطلًا، فقد وجد دون ريتوريكو غونثالث نفسه مضطرًا إلى اعتزال الملاكمة بعد إصابته بمرض في الرئة. منذ ذلك الحين كرَّس نفسه لـ«تدريب الشباب الذين يحلمون بأن يصبحوا شيئًا في عالم الملاكمة على الصعيد الوطني»، أو أنَّ هذا هو ما اعتاد أن يقوله بوقار فوق موائد المقاصف الضخمة.

يقولون إنَّ أحدًا ذهب في ذلك اليوم ليقابل روساريو فييرّو، بعد أن رأى وصول وفد الزوار، وأخبره أنهم أشاروا إلى رجل ضخم الجثة، رأسه كالثور ويتخطى ارتفاعه مترين، حينما سألهم أيّ ملاكم سيخوض النزال الثاني.

قال له:

- يكاد يكون عملاقاً.

يقولون إنّ روساريو أجابه:

- حتى ولو كان أورسوس ([18]) نفسه!

وثقَ روساريو فييرّو في نفسه. لم يتدرب كممسوس من أجل العدم. كان يصل في كل مساء إلى صالة التدريب ويستنشق عفن الأجواء المنفر بتلذذ، متبجحًا بأنّ رائحة الحجر الكلسي الطباشيري المختلطة بالعرق الزنخ تمده بالطاقة كـ«عبق» الديناميت، قبل أن يرتدي ملابس التدريبات ويتوقف أمام المرآة الصدئة الطويلة -التي تعد مكمن الرفاهية الوحيد في الصالة وتعكس الجسد بالكامل- ليضبط تصفيفة خصلات شعره

الأمامية، ويبدأ تدريبات القفز فوق الحبل. بعدها، كان يضرب كرة الملاكمة الصغيرة، ثم كيس الملاكمة الرملي الكبير، حتى يتمم تدريباته في النهاية بلكم الهواء لفترة طويلة بإصرار كبير، عقبَ ذهاب البقية للاستحمام، إلى درجة يُعطي معها انطباعًا بأنه يتقاتل مع البخار المتصاعد من عرقه. بهذه الصورة، وجد دون ريتوريكو نفسه مضطرًا دائمًا إلى القيام بنقيض ما يفعله مع بقية الملاكمين: إجباره على الراحة. لهذا كان يضربه في كتفه قائلًا:

- انتهينا يا فييرّيتو. احصل على بعض الراحة، وإلا ستتحول إلى سحابة.

لطالما قال له إنّ الحماس الزائد ليس جيدًا. إنّ صفاء الذهن هو ما صنع عظمة العظماء داخل الحلبة. هذه أكثر نصيحة رددها دون ريتوريكو: «الملاكم الأفضل يرى هفوات خصمه أولًا، ولهذا عليه أن يدرس خصمه من دون أن يفقد هدوءه». لكنّ السلاح الذهبي في عالم الملاكمة، كما أخبره يوميًا هو الهجوم المرتد. كرر نصيحته له مرة تلو الأخرى وحذره من نسيانها:

- نعم يا فييرّيتو. الهجوم المرتد. عليك أن تتذكر الأمر دائمًا. الهجوم المرتد.

أحيانًا، كانَ روساريو فييرّو يتوجه مع مانيوغو بعد التدريبات لشرب الجعة وهو مستندًا إلى طاولة أحد المقاصف. كلما حدث هذا، دار حديث الملاكم السابق عن بطولات أساطير اللعبة العالميين على مر الزمن مثل ديمبسي وجو لويس وراي شوجر روبنسون، قبل أن يحدثه عن الأبطال القوميين مثل تاني لوايثا وأرتورو غودوي، ومن بعدهم رموز الملاكمة في البامبا، الذين لم

يصلوا فقط إلى حلبات العاصمة، وإنما أيضًا صفحات مجلة «إل إستاديو». «هذا حدث فعلًا يا فييرّيتو». لطالما قال له عبارته هذه بعينين دامعتين من فرط تأثره.

من ضمن هؤلاء مثلًا سيغوندو أغوستين ريبيرا الملقب بـ«الحصان الأشهب الصغير» الذي صار في إحدى ليالي مسرح كاوبوليكان وصيفًا لبطل تشيلي ألفريدو كورنيخو. الأمر الوحيد الذي منع «الحصان الأشهب الصغير» من الفوز باللقب أنه كسر في الجولة الثانية اثنتين من أصابع يده اليسرى، وهي يده الجيدة. رغم ذلك تحمّل الأمر، بفضل ضراوته، واستمر في القتال واللكم بكلتا يديه، وأنهى اللقاء واقفًا فوق قدميه.

- وما الذي قد نقوله عن رامون تابيا... «تابيا المنفوش»، ابن البامبا الذي أصبح أحد أهم الملاكمين في البلاد وسافر لو لم تخني الذاكرة لتمثيل تشيلي في أولمبياد أستراليا عام ألف وتسعمائة وخمسة وستين وجلب الميدالية الفضية من أرض الكناغر.

انتهى أول نزاع في تلك الليلة في الجولة الرابعة، فبين الجولتين الأولى والثالثة شرّف «كيد» لونا لقبه أربع مرات. كان الرجل عنيدًا ونهض في كل مرة منها قبل العدة التاسعة. قرب الدقيقة الثانية من الجولة الرابعة، وجّه إليه خصمه العاصمي لكمة أمامية بيسراه طرحته أرضًا. حاول «كيد» لونا الوقوف، إلا أنّ ساقيه خانتاه وانمحت نظرته فبدا كالموتى الأحياء. تعاظمت حدة استهجان الجمهور وهو محمول جرًا من قبل اثنين من المساعدين حين حاولَ أن يرفع يديه لتحية الفائز. يقولون إنّ روساريو فييرّو اقترب منه حينما تركوا جسده كجثة فاترة في غرفة الملابس، ووضع يده فوق كتفه وقال له بنبرة حادة:

- سأفوز من أجلك يا لونيتا!

وفي تلك اللحظة نادوا عليه من أجل النزال.

لمَّا صعد فوق الحلبة ووثب من فوق الحبال، ورفع يديه لتقديم التحية كعظماء الملاكمة العالميين، شعرَ كأنّ جلبة الجمهور -وهذا ما حكاه لي لاحقًا- قد استحالت إلى صدمة كهربائية نزلت من مؤخرة رقبته حتى خصيتيه. شعر برعشة تكاد تقارب حد الانتشاء. كان الوقوف هناك هو المجد بعينه.

انتهى النزال في الجولة الثالثة.

بدأ الخصم الضخم، الذي اعتمد على حجمه لا فنّياته، يلكمه بقوة منذ البداية. قبل نهاية الجولة الأولى، وجّه له عدة ضربات بكوعه وفتح حاجبه بعد ضربة بالرأس. تضرج رأس روساريو فييرّو بالدماء. استمرّ العملاق خلال الجولة الثانية في توجيه هجومه إلى الحاجب المجروح، من دون توقف، إذ انتهز كل فرصة لضربه بكوعيه، ورأسه وكتفيه.

احتجَّ الجمهور، لكنَّ الحكم العاصمي تجاهل الأمر، كأنَّ شيئًا لم يكن.

جاء رد فعل روساريو فييرّو في الثواني الأخيرة من الجولة الثالثة، فبينما هو محاصر عند الحبال والدم يغشى نظراته واعتقاد الجميع أنه سيسقط، إذا به يوجه ضربة قاتلة بيسراه إلى الرجل الضخم فيطرحه أرضًا. أنهى الحكم عدّه ولم ينهض الملاكم العاصمي. بدا ميتاً. أنزلوه من على الحلبة فوق محفة ونُقل إلى المستشفى على الفور. شُخصت إصابته بشرخ في العظام المحجرية للعين اليمنى، واضطروا إلى إخضاعه لجراحة.

كان روساريو فييرّو الفائز الوحيد من أصحاب الأرض، فقد ذبح العاصميُّ ماريو سالييناس في النزال الثالث، واضطر الأخير إلى الاستسلام في الجولة الخامسة، أمّا النزال الرابع والنهائي الذي أودع فيه الجمهور كامل ثقته عن البقية، فانتهى بالتعادل الفني.

مع انتهاء النزالات، استولى منظمو «عيد الربيع» على الحلبة عنوة، وبعد بضعة خطابات وعرض «فريق اللتر» الغنائي، أعلن المذيع عن نتيجة فرز الأصوات الأخير:

- ومن ثم، سيداتي وسادتي، فـ«ملكة الربيع» الجديدة الساطعة، وبهامش كبير من الأصوات هي... الآنسة ليدا فلوريس ألكانتارا من تحالف المنجم!

كانت الفوضى عارمة. صعدت ليدا إلى الحلبة لتحية وشكر من دعموها وصوّتوا لها ومن لم يصوّتوا لها أيضًا، فهي ملكة للجميع. صفق الجمهور، وبالأخص أنصارها، وهتفوا بأنه شرف لهم، فيما استهجنت التحالفات الخاسرة الأمر وادّعت، كما يحدث سنوياً، أنّ الفرز شهد تلاعباً. صعد بعض الملاكمين بعد نداء المذيع إلى الحلبة لتحية جلالتها «الملكة ليدا الأولى».

انتظر روساريو فييرّو وصعد في النهاية. يقولون إنَّ تحيته استغرقت وقتاً أكثر من ذلك الذي استغرقه الحكم في العد بعد ضربته القاضية.

ثمة عجائز ما زالوا موجودين في المنجم يؤكدون، كما سمعتهم وأنا أجلس لأقرأ خارج الكوخ، أنَّ الأمور بدأت فعلاً هناك؛ في تلك الثواني الزائدة التي استغرقتها تلك التحية بين روساريو فييرّو و«الطفلة ليدا».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٨

أورا، ما حدثَ في الليلة الماضية رائع. حين سمعت اسمي ملكةً جديدة شعرت بقشعريرة في شعري وأفلتت مني صرخة هائلة. عانقتني بقية المرشحات وقدَّمن لي التهنئة، باستثناء ناتاشا التي أصابها الغضب بالبكم. هتفَ الناس في الرواق بجنون. لم أر في حياتي شيئًا مثيرًا بهذه الصورة! علاوة على ذلك، تمكنت من رؤية الشاب فييرّو يقاتل في الحلبة وهو يوجه الضربات ويستقبلها، غارقًا في عرقه كمقاتلي الأفلام الرومانية. شعرت بدغدغة ما داخلي من مشاهدته على هذه الحال. إنه شيء يبدو كإحساسي مع قصائد الشاب إلياثار، لكنه أكثر تأججًا. أورا، أنا واثقة من أنكِ كنتِ ستختارين الشاعر وأنا الملاكم. هل تتذكرين أنني كنتُ الأقوى بيننا دائمًا، إذ اعتدتُ أن أقتل العناكب التي تصيبك بالذعر. (لم أقتل آخر عنكبوت. أقسم لك بهذا). لو كان الأمر بيدي، لاحتفظتُ بالاثنين لي. يا لها من خلاعة! أليس كذلك؟ غدًا ليلة التتويج وعلمتُ أنَّ الشاب إلياثار يشارك في مسابقة «أنشودة الملكة». ليتهُ يصبح شاعري المكلل! سلام يا أختي.

ملاحظة: حينما حيَّاني الملاكمون، قبَّلني الشاب روساريو بالقرب من فمي، وقال لي في أذني: إنني لذيذة. يا له من صفيق! أليس كذلك؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٩

في تلك الأيام، شعرتُ بأنني غير قابل للهزيمة مثل روساريو فييرّو، وبأنَّ أبيات أنشودتي التي اجتهدت فيها بإصرار ستفوز في المسابقة، وبأنني سأحظى بشرف قراءتها تكريمًا لليدا. عذرًا، لجلالتها «ليدا الأولى ملكة الربيع». كنت واثقًا من هذا بقدر ثقتي في أنَّ طعام يوم الاثنين في المقصف سيتكون من الفاصوليا ولحم الخنزير والفلفل الملون.

لكنَّ ظنوني كانت خاطئة.

لم أخسر فقط لقب «الشاعر المكلل»، وإنما اتُهمت أيضًا بالتزوير الأدبي.

قضيتُ الأسبوع كله محاولًا تفادي ليدا. لم أود أن أقابلها بمفردي لكيلا أسقط في إغراء طلب ودّها قبل الوقت الصحيح. فكرتُ كأي حيوان رومانسي (أو ربما لأنَّ برج السرطان قمري) في أنَّ أنسب فرصة لإعلان حبي لها ستكون في تلك الليلة المجيدة حين تتوج، وأقرأ لها أبيات أنشودتي في ملعب ممتلئ بقوم يهتفون باسمها.

إنَّ تخيُّل مسرح أفضل من هذا أمر مستحيل.

يُفترض أنَّ نتيجة المسابقة كانت ستعلن ليلة السبت بعد الكشف عن اسم الملكة الجديدة. لكن لا في ذلك اليوم ولا في صباح اليوم التالي جاء أحد ليُخبرني بشيء. ظننت مطمئنًا أنَّ اللجنة ظلت تتدارس قرارها حتى الفجر، لذا فأنَّ الخبر سيأتي ظهرًا.

انتظرت طوال المساء، ولم يأت أحد لمقابلتي.

حاولتُ طمأنة نفسي: «اهدأ يا إلياثار. سيأتون على الأرجح قبل بداية السهرة». كان أحد موظفي المكاتب (وهو أول شخص عرفته في البامبا يقرأ) قد كتب لي القصيدة على الآلة الكاتبة وأعارني بدلة وربطة عنق، وهي الشيء الذي لم أستخدمه قبلئذٍ قط.

كان الموعد المقرر لحفل التتويج في التاسعة والنصف.

انتظرتُ حتى حلول الليل محاولًا التركيز في قراءة أحد الكتب بعد تلميع حذائي ووضع البدلة فوق الفراش، مستعدًا للقفز فوقها بمجرد قرع الباب. وقفتُ حافيًا مرتديًا قميصي الداخلي وأنا أطفو في حالة من سُبات القيظ والكرب.

لم يصلوا لإبلاغي بأي شيء قط.

الوحيد الذي جاء قبل التاسعة بقليل هو روساريو فييرّو. جاء متأنقًا، إلا من لاصق طبي صغير فوق حاجبه، إذ ارتدى بدلة جديدة من نسيج المارينغو، وقميصًا أبيض مطرزًا، وسار بطريقة جعلته فعلًا لا يُطاق، كأنه بطل عالمي في الوزن الثقيل. لقد أنفق كل المال الذي حصل عليه من النزال على الملابس ومر عليّ لنقضي السهرة معًا.

قال وهو يضبط خصلات شعره الأمامية في المرآة الصغيرة ذات الإطار الصدفي المعلقة وراء الباب:

- أنت بالطبع لا ترغب في ضياع فرصة رؤية ليدا ملكة.

تظاهرتُ بأنَّ الأمر لا يعنيني. لحسن الحظ أنني كبحت رغبتي في رواية مسألة المسابقة له. ارتديت بنطالي وقميصًا عشوائيًا وأنا

مستسلم وذهبت إلى الحفل. كل ما همّني آنذاك معرفة من تمكن من خطف جائزة «الشاعر المكلل».

امتلأ الملعب أكثر من الليلة السابقة. ظهرت ليدا على المسرح جالسة على عرش من الخيزران مكسو بورق لامع، وسط حاشية أنيقة من السيدات. إنَّ رؤيتها هناك بجمالها وملاحتها وشموخها وسيطرتها وألفتها المثيرة للإعجاب -كأنَّ هذا العرش الشرفي مقعدها اليومي- كلها أمور جعلتني أفكر أنني لستُ جديرًا بتتويج إلهة مثلها. دفعتني تصرفاتها وإيماءاتها كمن ينتمي حقًا إلى عائلة مالكة، إلى التفكير في أنَّ كل من ملؤوا هذا الملعب ليسوا سوى أتباعها، ورعاياها، ورجال بلاطها.

حينما أعلنَ مُحيي حفلات الربيع منذ أبد الآبدين دون إرنستو لارّوندو اسم «الشاعر المكلل»، بعد العرض الفني الأول، ظهر على المسرح شاب بدين ذو نظارة يرتدي بدلة سهرة. بدأ قراءته، ودفتره يرتعش بين يديه. انطلق برباعية ممتازة، لكن بعدئذٍ ذابت منه القصيدة بالكامل في أبيات غثة وقوافٍ واضحة. قرأها الرجل بصوت متكلف من دون أن يرفع نظرته من فوق الورقة، أو حتى النظر -ولو لمرة واحدة- إلى الملكة الجميلة المبتسمة.

عجزتُ عن تصديق الأمر. قصيدتي أفضل مائة مرة من هذا المسخ. توعكتُ وانسحبت قبل انتهائه من القراءة. لم أود أن أرى اللحظة التي سيضع فيها هذا الأبله التاج فوق ليدا. قلت لصديقي إنَّ معدتي تؤلمني وسأذهب للنوم.

فسخر مني روساريو فييرّو:

- أليست المسألة أنك تشعر بالغيرة من هذا السمين؟

خرجتُ من الملعب مهزومًا بالكامل. لم أذهب إلى غرفتي. بقيت بعض الوقت جالسًا على أحد مقاعد الميدان المقفر. ثمة شك ظلَّ يتأجج داخلي. الرباعية الأولى في قصيدة السمين هي الشيء الوحيد الذي أنقذه، لكنني كنت أعرفها، بل إنني تذكرتها. بالطبع... إنها بداية قصيدة الشاعر الرانكغوِيّ ([19]) أوسكار كاسترو:

أحبك يا أرض

كأنكِ قلبي

أستيقظ فوقك

لأنشد مزموري

إن رفعتُ جبهتي

فقدماي ترتاحان فوقك

أنا البتلة السمراء

في سنبلة الأناشيد.

استبدل الشاعر الوغد كلمة «بامبا» بـ«أرض».

غيَّرت الرياح اتجاهها من دون أن أدرك، واكتسى المعسكر بغبار كسارات الملح الصخري كضباب ثخين من الملح القذر. وصلتْ إليّ آخر مستجدات الحفل عبر مكبرات الصوت كأنها حلم بعيد. حين أوشكت السهرة على الانتهاء وترددت المقاطع الأولى من نشيد «ها هم الطلبة يعبرون»، نهضت وانطلقت لأسير.

اكتسبَ الليل طابعًا شبحيًا أسفل ضوء القمر الذي خفتَ مع غبار الملح الصخري.

بينما أبتعدُ عن الميدان، استمريتُ في سماع أصداء الأغنية التي تعلمتُها في طفولتي في المدرسة الابتدائية. سمَّاها الناس «أغنية الجرس الصغير». كتبها غوستابو كامبانيا في حقبة الثلاثينيات ولحنها خابيير رينغيفو، وصارت -كما أخبرنا أستاذ الكمان- نشيد الشباب بالنسبة إلى عدة أجيال.

الجرس الصغير

جلجلته عذبة وصافية

يقول لنا القلب

إنَّ في كل وعد

واقعًا أزرق وضَّاء.

في اليوم التالي، وأنا في طريقي إلى المطعم، مررتُ على رئيسة لجنة تحكيم مسابقة «أنشودة الملكة»، مديرة المدرسة السيدة إرينا بريستيلا دي كامبومار، التي كانت تطلب إلينا مناداتها باسمها الكامل. ذهبتُ لأطالبها بإعادة قصيدتي، فالنسخة الموجودة عندها هي الوحيدة المكتوبة بالآلة الكاتبة. رفعت السيدة رأسها من على دفتر الملاحظات الكبير الذي انغمست فيه من وراء مكتبها، وسألتني عن الاسم المستعار الذي قدمتُ به عملي. بعدها أمسكت دفترًا، وبللت أنملة أكبر أصابعها، وتصفحت بهدوء القصائد المرتبة إلى أن عثرتْ على الأوراق التي لا يُمكن إخطاؤها، فهي في حجم الخطابات الموقعة ومذيلة باسمي المستعار: «زيوس». ناولتها لي، فدمدمتُ بعبارة «شكرًا، سيدتي» بمشقة وفزع، ثم توجهتُ نحو المخرج. توقفت وأخذت نفسًا قبل أن أفتح الباب، ويدي ممسكة بمقبضه، ثم التفت وواجهت المديرة متلعثمًا:

- اعذريني، سيدتي، هل يمكنك أن تخبريني ما الذي حدث مع عملي؟

لكن ما وددت أن أسمع نفسي أقوله تقريباً هو: «قولي لي أيتها العجوز القذرة: أي شيء ملعون حدث مع قصيدتي؟».

تركت السيدة إرينا بريستيلا دي كامبومار مسطرتها الخشبية لتحدد سطراً في دفتر الملاحظات الذي كانت قد انغمست فيه مجدداً. خلعت نظارتها ذات الإطار المعدني، ونظرتْ إليّ عيناها الجاحظتان لأول مرة، من دون أن ترمش.

- دعنا نرى يا فتى. ناولني عملك.

أعدتُ الأوراق إليها.

قالت كأنها قد تذكرت الأمر:

- آه... ما جرى أنَّ اللجنة ارتأت أنه من المستحيل أن يكون أحد طلاب المدرسة قد كتب هذه القصيدة، ففيها خصائص كثيرة تدل على أنها منسوخة من كتاب.

ثم ناولتني الأوراق بعدها.

ظللت أنظر إليها مرتبكاً. وددتُ أن أرد وأن أعترض وأن أطالب بتفسيرات، إلا أنَّ جسدي استدارَ كأنه يُسيّر نفسه بنفسه، وخرجتُ من المكتبة من دون أن أنطق.

شعرت بأنني في حالة دوار.

اجتزتُ فناء المدرسة غاضباً: يا لها من عجوز قذرة! لكن ما إن خرجتُ من الصرح، حتى أدركت فجأة شيئاً: طيلة الوقت الذي كتبتُ فيه، لم تحظ أيٌّ من قصائدي بثناء مثل هذا قط.

فيها خصائص كثيرة تدل على أنها منسوخة من كتاب!

مضيتُ في طريقي إلى المطعم، سائرًا في وسط الشارع وأنا أصفّر لحن «أغنية الجرس الصغير»، لأنّ إيقاعها ظل يتردد داخل رأسي منذ الليلة السابقة.

منسوخة من كتاب!

في المطعم، كان طبق اليوم هو الفاصوليا مع لحم الخنزير والفلفل الملون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢٠

أورا! أنت لا تعرفين كيف هي حالي! تخيلي: أنا جالسة على عرش وألوّح بيدي وكل سكان المستوطنة ينظرون إليّ باعجاب. نادوني: «جلالة الملكة ليدا الأولى». لقد شعرت فجأة بإحدى تلك الومضات التي تصيبني بالجنون، وتخيلتك أنتِ على العرش وأنا في المقبرة، لكن الأمر مرّ سريعًا. الأمر الهامّ أن الملعب كان ممتلئاً وتعاملت السلطات معي بلطف كبير، واضطررت إلى رقص الفالس مع السيد المدير، ورغم أنّ الـ«غرينغو» عجز عن تحريك ساقيه كما يجب، كان جميلاً أن أقف بين ذراعَي الآمر الناهي. وددت ألا تنتهي السهرة. أسوأ شيء أنّ الشاب الياثار لم يفز بالمسابقة، فتوجني شاب بدين منزوع الروح يرتدي نظارة. كان أمرًا مؤسفًا. سأطلب إليه أن يُريني قصيدته، رغم أنّ المسكين خجول جدًا، على عكس الملاكم، فهو رجل له ألاعيبه. في اليوم السابق، بينما أقدم له الغداء، قرصني في ردفي، فتضرجت من الخجل كالبندورة، إذ اعتقدت أن بقية الزبائن أدركوا الأمر، لكن في أعماقي تروقني وقاحته. كما ترين، ما زلتُ الأكثر جنوناً بيننا. سلام!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢١

بعد انتصاره الرسمي الأول، استمر روساريو فييرّو في الملاكمة وتحقيق الفوز بالضربة القاضية في أغلب النزالات. صار رمزاً رياضياً في «المستوطنة» في غضون وقت قليل.

ودّ الجميع أن يكونوا إلى جواره. لطالما نظر إليه الرجال والنساء والأطفال بإعجاب وتبجيل، كلما وقف خارج السينما بقميصه المطرز وخصلات شعره المصمغة وعلكته في فمه انتظاراً لبداية الفيلم. عامله العاملون في مناجم كل القطاعات باحترام فائق الحد، وتحول «الفأر الأبيض» تقريباً إلى ظله. أيضًا، اعتاد سائقو القطارات المحملة بالملح الصخري الذين اشتهروا برباطة جأشهم الحجرية أن يحيوه بإطلاق صافرات قاطراتهم ببهجة طفولية. اضطر رئيس الجماعة بينابينتي، بأمر من الإدارة وهو يستشيط غضباً، إلى تكليفه بأعمال خفيفة وغير مجدية تقريباً، بل وأن يجلسه في الظل لو كان الأمر ممكناً، فعليه ألا يتسبب في وقوع أي حادثة للبطل. بالنسبة إلى سكن العزاب، فسمح له حراسه بإدخال قوارير ضخمة من النبيذ وزجاجات شراب صغيرة وتجاهلوا الحفلات الصاخبة التي أقامها في غرفته. وصل الأمر إلى السماح لنساء من المعسكر بدخولها. هؤلاء النساء اللاتي تجرأن، بعد تنكرهن كرجال، على تخطي هذه الأراضي التي لا يُسمح بوجودهن فيها إلا إن كنَّ عاهرات. قدم له مدير السينما تذاكر مجانية لأي عروض يودّها، وكلما وصل إلى محل المستلزمات لشراء قمصانه، أعفته موظفات الصرافة من الوقوف في الصف وخدمنه قبل الجميع من دون أن يعترض أحد. حيّاه رجال الشرطة العسكرية في دورياتهم عبر الشوارع

بوضع أيديهم فوق أطراف قبعاتهم وعبارة «كيف الحال يا بطل؟». لطالما انتهى الأمر في جولاته عبر الحانات، التي لم يدفع فيها بيزو واحدًا وعثر خلالها دائمًا على أحد يدعوه، برقوده فوق إحدى طاولاتها ثملًا إلى أقصى حد، من دون أن يأخذوه بعدها إلى نقطة الشرطة كحال بقية السكارى، وإنما كانوا يدفعونه إلى سيارة الدورية ويتركونه بعدئذٍ في غرفته. بالنسبة إلى المطعم، فإنّ دونيا ديولفينا، التي لم تتفضل على أي أحد بلطفها قد أغدقت عليه باهتمامها، وقالت إنها تحبه كالابن الذي ودت أن يكون لها، لكن الرب لم يبخل عليها في النهاية وجاء إليها به. بالنسبة إلى دون سيرباندو فلم يتوقف عن الخروج إلى غرفة الطعام وإبهاماه موضوعان فوق حمالتَي قميصه ليتحدث مع البطل الصغير. حتى ليدا نفسها، بدأت تراعي طريقة تعاملها معه، ولم ينعكس هذا الأمر فقط في اتساع وضياء ابتسامتها المتزايد له، وإنما أيضًا في أحجام أطباق الطعام.

أصبح العجائز يقولون: طبقه بات يفيض بالطعام أكثر من «آكل الكتب» نفسه.

أدرك كل من في المطعم خلال تلك الفترة أنّ ثمة شيئًا يحدث بين ابنة مالكته والملاكم.

كلهم باستثنائي أنا.

تحدث الزبائن سرًا، من أماكنهم فوق الموائد، أنَّ هذا الأمر كان سيحدث لا محالة، فمن المعروف أنّ النساء الجميلات خفيفات العقل يروقهن الرجال الأوغاد، وليدا ليست استثناء.

إنّها تجسيد حي لهن.

ما حدث هو أنَّ الجميع ساروا ولعابهم يسيل من أجلها. أرسلوا لها التحايا وتركوا لها الهدايا أسفل مفارش الموائد، لكن فجأة وصل وغد له عينان خضراوان لم يتحل حتى بكياسة معاملتها بالاحترام المطلوب، فكان يناديها بصفير الكلاب كلما مرّ على منزلها لاصطحابها، وبين هذا اليوم والآخر وقرصها في ردفيها سرق قلبها ومعه كل الأمور الأخرى.

اعتاد أحد العجائز أن يقول:

- الأمر أشبه بتلقي ضربة مفاجئة يا ابن بلدي!

أدركتُ المسألة حين رأيتهما يخرجان معًا من السينما. كان عرضًا مسائيًا وطوَّق روساريو فييرّو خصرها بذراعه. بقيتُ واقفًا كمخبول وراء أحد أعمدة السينما. بعدها، وصلت إلى غرفتي وأحشائي تغلي من فرط الغضب. لم أنم طوال الليل. في اليوم التالي، سحبت اشتراكي من المطعم من دون تفسيرات، وبالطبع لم أتحدث مع روساريو فييرّو مجدداً.

كان أمرًا قاسيًا. دخلت في حالة من الشلل. فكرت فيها ليلاً ونهارًا. عشت أقتاتُ على ذكراها ومذاق حلوى «بيوليتا» من قبلتنا الوحيدة. ما يزال تلوّي لسانها يحرقني في سقف حلقي. أول صورة أتت في عقلي، كلما استيقظت، وجه ليدا وهو يتفتح بابتسامته البديعة؛ وكان هذا الوجه بابتسامته البديعة آخر ما يتراءى لي قبل النوم. لم أتحدث مع أحد في العمل، وجئت وذهبت في عربة القطار منزويًا في أحد الأركان، وأنا أتحمل بمشقة مزاح زملائي في الجماعة.

مع ذلك، استمروا في مطالبتي بكتابة رسائل إلى خليلاتهم وطلب النصح مني حول هذا الأمر أو ذاك، لأنني أكثر شخص مثقف قد

عرفوه، ولأنهم عدّوا من يقرؤون فصيلة منفصلة بحد ذاتها. أسوأ شيء أنَّ كل استشاراتهم تناولت أموراً حميمية مثل: ما الذي يجب عليهم فعله بخلاف حل الديناميت المعروف إن اكتشف أحدهم مؤخراً خيانة زوجته.

- زوجتي التي أحبها أكثر من كل شيء. أقسم لك يا ابن بلدي! وبيننا أربعة أبناء. ابنتان وولدان، وزواجنا قائم منذ خمسة عشر عامًا. تخيل! وتأتي إليّ الآن بأمر مثل هذا.

كان كل هذا الهراء كإلقاء ملح صخري ساخن على جراحي.

في صباح أحد الآحاد، حدث شيء قلبَ طمأنينة سكن العزاب رأسًا على عقب. إنها واقعة أخرجتني بعض الشيء من تقوقعي على ذاتي، إذ عُثر على جثة «الملكة إيسابيل»، أقدم وأشهر عاهرة في المستوطنة، من قبل بعض زميلاتها.

لقد ماتت وحيدة في غرفتها، وقِيل إنَّ سبب الوفاة ورم سرطاني.

كانت «الملكة إيسابيل» أقدس ساقطة في سكن العزاب؛ لأنها أحنهنّ وأكثرهن صبراً في معاملة رعاياها الأكبر سناً. لهذا ساد الغضب حينما انتشر نبأ أنَّ القس رفض إقامة قداس في حضور جثتها لكونها امرأة عمومية.

في يوم دفنها، رافقتُ تابوتها الزهيد حتى المقبرة، مع جماعة من أقدم عمال المناجم لم يتعدَّ عددها اثني عشر شخصًا. كنا وحدنا فقط مع مجموعة من العاهرات الحزينات اللاتي اتشحن بالسواد ولم يضعن ولو قطرة واحدة من مستلزمات الزينة. (وليزداد يأس العمال العزاب، اتفقت هؤلاء النساء ألا يعملنَ وألا يتزين طيلة ثلاثة أيام، حداداً عليها).

تذكّر الكثيرون في البامبا، لفترة طويلة، الخطاب الجنائزي الذي ألقاه عامل منجم يدعى ميسانا بنبرة ملحمية وبصوت رنان ليعلن عن حبّه السري الأبدي لـ«الملكة إيسابيل». من ناحيتي، ألَّفتُ مجموعة من القصائد تكريمًا لها.

كان هذا الأمر كأن أتنفس من جديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢٢

أختي! أنتِ لا تعرفين ما حدث. كوني واثقة من هذا. ربما خمنتِ ما فعلته ومع من. أجل، مع الملاكم، لكن أتعرفين؟ لم يكن الأمر كما تظن الواحدة منا أنه سيكون. لم أسمع جلجلة أجراس صغيرة كما الأفلام. كل ما شعرت به هو الإهانة، وهذا لأنَّ كل شيء حدث سريعًا، خلف ملعب كرة القدم. الليل كان حالكاً ولم نر شيئاً، وفوق كل هذا مدّد جسمي على الأرض فوق أحد أكياس القمامة البلاستيكية. هل تتخيلين؟ الأرض كانت مليئة بالحصى وفاحت منها رائحة البول. لم يصدق أنني عذراء وحينما رأى الدم لم يلقِ بالاً بالأمر. في النهاية، ما ظننته أهم حدث في حياتي، كان مجرد إجراء بلا أهمية بالنسبة إليه. ما إن انتهينا، حتى توقف عن قول كلامه المعسول وتركني عند ناصية البيت، وأخبرني أنه سيجتمع مع بعض أصدقائه. لم يعانقني حتى في طريق العودة. رغم أنه يتصرف كقواد، فلن أتركه، وهذا كي تعرفي فقط كيف هي أختك ليدا. سلام!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢٣

عُرف داخل الجماعة أنَّ التوتر القائم بيني أنا وروساريو فييرّو سينفجر في أي لحظة.

كان أمرًا ملحوظًا في الأجواء، كما يحدث في الجنوب حين يوشك المطر على السقوط من السماء. هذا هو ما قاله أشد الـ«أواسو» تمسكًا بالعادات.

تفجرت الأمور في النهاية بالتزامن مع العمل على إحدى التحويلات العويصة لمسار السكة. كانت التحويلة تقع قرب منحنى؛ وهو أصعب أنواعها. في ذلك اليوم، شقت الشمس الحجارة من شدة حرارتها. كانت سبع ساعات من التعرق بلا راحة أو ماء؛ لأنَّ البرميل بعيد جدًا. خطبَ فينا رئيس المنجم، ذلك المهندس الأصهب السمين الذي ظل طوال الوقت في مقصورة شاحنته المكيفة، عن انخفاض إنتاج الملح الصخري وضرورة عدم إهدار ثانية واحدة.

لما انتهينا من العمل، ونحن نكاد نقارب حد اليأس من شدة عطشنا، ركضنا كقطيع وجررنا أدواتنا جرًا في اتجاه برميل الماء الواقع على بعد كيلومتر. استبقت أنا وروساريو فييرّو البقية بعدة أمتار لأننا الأصغر سنًا، وركضنا بصورة شبه متوازية. عرقلني الملاكم، ونحن على بعد خطوات قليلة من البرميل، فتدحرجت على الأرض. صرخ بأنه الفائز ووضع فمه العطشان عند الصنبور وأداره ليتجرع كل ما انسابَ منه.

ما حدث بعدها كان مذهلاً.

بعد أن تجرَّع الرشفات الأولى من الماء البارد، انبثقت منه شهقة غثيان، ثم وضع يده في فمه مفزوعًا لإخراج فأر ضخم من ذيله. كان قد سقط في البرميل وأوشك على ابتلاعه بالكامل.

صرخت في مكاني من على الأرض:

- حدث لك هذا لأنك مخنث يا بن العاهرة.

انقضَّ روساريو فييرّو عليّ وكالَ لي تشكيلة من اللكمات والركلات. تدحرجنا على الرمل بعد اشتباكنا في شيء بدا أشبه بقتال بين كلاب الشوارع. كلبان ظمآنان. لولا أنهم فصلونا، لاتخذت المسألة منحى الدم؛ لأنني في ظل إدراكي أنني سأخسر بلا سلاح، أمسكت في يدي المفتاح الحديدي الذي يربط الصواميل في القضبان.

قِيل بعدها في المنجم إنَّ الملاكم استحق تمامًا ما حدث له مع الفأر.

«لأنه أحمق ومنافق». هكذا كان حكم الناس.

إنَّ عرقلتي للوصول أولًا إلى الماء هي نفس ما فعله في مسألة ليدا: لم يلق بالًا بأنَّ صديقه عرفها قبله وأنه مغرم بها إلى حد الغباء. كان واضحًا أنَّ ضميره في شؤون النساء -وربما أي شيء آخر- لا يسهل الأمور، وإنما يُعقدها.

في الأيام الأولى في المطعم، تظاهر روساريو فييرّو باللا مبالاة في تعامله مع ليدا، فهذا تكتيكه مع النساء الجميلات اللاتي يعرفن أنهن جميلات، إلا أنه حينما اقترب منها في لقاء الملعب، بعد الفوز بنزاله الأول وإعلانها «ملكة الربيع»، قرر اللعب بكل أوراقه.

لقد قال لاحقًا بنبرة مغرورة:

- الفرصة جعلته أمرًا مستحقًا.

منذ تلك اللحظة لم يمنحها هدنة. يقول العجائز إنَّ الأمر لم يزعجها إذ كانت تستغرق وقتاً أكبر في خدمته، كلما اقتربت منه بالأطباق؛ وبينما يتعامل الأحمق معها بتراخ من فوق الطاولة، لم يتوقف عن تحسسها بصفاقة من الأسفل، تحت حماية المفرش المشمع.

يؤكد العجائز أنَّ موضوع روساريو فييرّو وليدا بدأ قبل رؤيتهما يخرجان من السينما معًا بوقت طويل، وأنهما شوهدا أكثر من مرة وراء ملعب كرة القدم: موقع الزنا المفضل للعشاق السريين في «المستوطنة». كونها عذراء كان مجرد أمر مضحك بالنسبة له. يقولون إنه قال: «ما ذنبي في أنه لم يتحل أحد قبلي بالشجاعة الكافية لركوب هذه المُهرة؟».

لم يحترمها أصلاً كخليلة، إذ لم يتوقف وهي معه عن اصطياد أيّ «عصفورة» تأتي في مرمى «بندقيته». فجأة، انطفأ نجم روساريو فييرّو بعد أن لامس بانتصاراته على الحلبة خطوط المجد وتخطت شهرته كملاكم مستوطنات الملح الصخري.

ذات صباح وصلت إلى سكن العزاب دورية «المستوطنة» ومعها شاحنة تابعة لشرطة أنتوفاغاستا المدنية. أظهروا مذكرة ضبط وإحضار بحقه بتهمة القتل، لأنَّ الرجل الذي ضربه في قريته توفي بعد أن ظل في غيبوبة لفترة. ظلوا يقتفون أثره، واستغرقوا ما استغرقوه من وقت في العثور عليه لأنَّ صحراء أتاكاما أفضل حارس لمن يهربون من شيء أو شخص -أو حتى الرب نفسه- بفضل امتداداتها الفلكية وسُريها الزرقاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢٤

لم أكتب إليكِ منذ فترة يا أورا. وهذا لأنّه ما من شيء يحدث هنا. يكاد الملل أن يقتلني. لم يعد روساريو فييرّو يروقني. أبقى معه فقط، رغم أنه يمشي مع أخريات، لتفادي كل هذا الملل. بخلاف ذلك، بات سكيرًا ويتصرف بعنف. دعيني أخبرك أن الأمر وصل إلى حد أن يرفع يده عليّ. أفكر الآن في أنني كان يجب أن أبقى مع الشاعر، لكن ربما كل الرجال سواسية كما تقول ابنتا العم. سأتركه لهذا السبب تحديدًا. لم أعد مهتمة بالرجال. ليس لهم فائدة ولا منفعة سائدة. دعيني أخبرك أنني لم أعد أخرج من البيت، فكلما مر الوقت، أجد البامبا أضجر من ذي قبل. عليّ أن أغادر هذا المكان. لا أعرف إلى أين، لكن عليّ أن أرحل. الأيام كلها واحدة هنا؛ كلها واحدة كحال السباقات المنزلية. أعتقد أيضًا أنني سأتوقف عن الكتابة إليكِ لفترة. ليست لدي الرغبة، فكما أخبرتك، لا شيء هنا لأحكيه لكِ. سلام!

ملاحظة: قالوا لي حالًا إنَّ بعض المحققين جاؤوا بحثًا عن الملاكم. سأحكي لكِ المزيد لاحقًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢٥

سعيتُ إلى استعادة انتباه ليدا حين اختفى روساريو فييرّو من المشهد.

لكن ليدا لم تعد ليدا.

وفقًا لابنتيّ عمومتها، لم تعد ترغب في مساعدة أمها مع زبائن المطعم، ولم تتوقف طوال اليوم عن الحديث عن تتويجها والجمال الذي كانت عليه وهي ملكة. حاولت عدة مرات أن أتحدث إليها، وبالمثل دعوتها أو مرافقتها إلى محل المستلزمات وحمل حقيبتها المطرزة بعصفوري كناري، إلا أنَّ رفضها كان قاطعًا.

كرستُ نفسي للقراءة والكتابة من دون أن أتوقف ولو للحظة واحدة عن التفكير فيها بمزاج عكر من فرط لا مبالاتها. كان الشعر وحده ترياق المرارة الحلوة التي نخرتني من الداخل، فقضيتُ أغلب أوقاتي محبوسًا في سكن العزاب لأقرأ، من دون أن أذهب حتى إلى المقصف لتناول الطعام. اعتدت أن أمدد جسدي فوق الفراش، بعد الوصول مساءً من العمل والاستحمام، أو أن أجلس على أحد مقاعد الفناء، ومعي كتاب في يدي على الدوام.

ذات مرة، في أحد أيام القبض، وأنا أتناول مرطبًا في الفناء، وأعيد للمرة الألف قراءة أنطولوجيا بابلو دي روكا (مع العلم بأنَّ «ملحمة أطعمة ومشروبات تشيلي» بدت لي قصيدة مذهلة)، رأيت وجهي طفلين مفزوعين يظهران أمامي وهما يعتليان السور

الخلفي. لم يتجاوز عمر أي منهما أربعة عشر عامًا. نظرا إليّ بقلق ثم طلبا إليّ راجين:

- اسمع حضرتك... أنت لن تشي بنا للحارس، أليس كذلك؟

هززت رأسي نافيًا، فقفز الطفلان إلى الداخل.

سألني صاحب الشعر الأخشن فيهما بوقاحة مذهلة، بعد أن نظف هو والآخر أيديهما ونفضا كلس السور من فوق بنطاليهما، إذا ما كنت أعرف أي غرف فيها ساقطات. عبرت صاعقة شريرة غيوم أحزاني، فقلت لهما وأنا أكتم ابتسامتي، كأنني لا أبالي:

- ثمة واحدة في الغرفة ٥٧.

سألني الطفل الآخر الأصهب الذي امتلأ وجهه بالنمش، بينما يخرج هو والآخر زجاجة من جيبه، إذا ما كنت أعتقد أنَّ المرأة ستقبل العطور مقابلاً لتقديم لخدماتها، لأنه ليس معهما مال.

قال:

- إنهما عطران مستوردان. هرَّبتهما جدتي من أريكا ([20]).

أجبته بلا مبالاة متظاهرًا بأنهما يزعجانني أثناء القراءة:

- لا أعرف. الأمر يتعلق بالتجربة.

تهامسَ الطفلان فيما بينهما، ثم انطلقا نحو الحجرة التي أشرتُ إليها حيث تعمل «لا أمبولانثيا» ([21]): أسمن ساقطة في البامبا وأكثرهن إثارة للذهول والخوف. فكرت بمرح: «لن ينسيا هذا اليوم طوال حياتهما»، وظللت أتخيل جسد هذه العاهرة الهائل يُضيِّق الخناق عليهما.

ظللت أفكر: في عمر هذين الطفلين، لم أكن سوى ذئب منفرد. لم أتجرأ قط على فعل ما فعلاه، وكان أكثر ما طاب لي هو التوغل وسط انغلاق التلال الصامت والحاد. لطالما بحثت عن العزلة لأتحدث بكامل الحرية مع عفريتي ([22]) . وددتُ أن أفعل أمرًا مماثلًا في تلك اللحظة في ظل إحباطي: أن أنطلق لأتجول في محيط المستوطنة بحثاً عن عفريت طفولتي، لأجلس إلى حجر، وأتحدث معه، لكن ما فعلته عوضًا عن ذلك، حبس نفسي والكتابة.

ربما الكتابة طريقة أخرى للحديث مع عفريتي.

أحياناً، من فرط تشبُّعي بالأدب، اعتدتُ أن أجلس لأتحدث لبرهة مع «الفلكي»، وهو عامل برز هيكله العظمي من تحت جلده، وكان شعره مقصوصًا مثل الموهيكان ([23]) . مسَّ الجنون عقله من كثرة القراءة في الفلك، فاعتاد أن يستقصي القمر ليلًا بمنظار من فوق أريكة خشبية صغيرة في فناء سكن العزاب، وأن يتحدث بوقار جدير بكوبرنيكوس ([24]) عن إذا ما كانت مراحل القمر مرتبطة فعلًا بطول العشب، أو كيف أنَّ الضفادع تبدو مخلوقة من الصمغ حين تقفز من بركة إلى أخرى.

بصورة ما، تعرفت على نفسي في هذا العجوز، إذ اعتدت أن أفعل شيئاً مماثلًا في المنجم، كلما اضطررت إلى الصعود والعمل ليلًا. كان زملائي يرتجلون لأنفسهم مراتب من الأكياس ويذهبون كرجال مباركين للنوم، انتظارًا لانبلاج الصبح بعد انتهاء الأشغال وتجهيز السكة ودوران العربات، أما أنا فلا، إذ اعتدتُ أن أمضي إلى أي تل قريب، وسط ليل الصحراء الحالك، لأفترش الرمال بجسدي وأتسلى بتأمل القبة المجوفة لهذه السماوات الشمالية

التي لا يوجد ما هو أكثر منها شفافية على سطح الكوكب. كان عرضًا مجيدًا ويُشعر المرء بدوار اللا نهائية. تهيَّأ لي أكثر من مرة -خصوصًا كلما انطفأت الأضواء بسبب عطل كهربائي وبقينا وسط ظلام الصحراء الدامس- أنني قد رأيتُ سر الكون نفسه، معزولًا بأحد أشكال التجلي. كان الإحساس قويًا ويدفعني، وأنا مأسور بمخاوف البشر القديمة، إلى النهوض فجأة والركض للنوم فوق الأكياس إلى جوار زملائي.

رافقتُ زملاء جماعتي أحيانًا بعد الانتهاء من العمل في مرورهم على أي مقصف أو حانة لشرب «متر مربع من الجعة» وسماع مواويل الـ«كورّيدو» المكسيكية التي لطالما شغلتها حانات الىامبا بعلو الصوت. رغم ذلك، تجنبت بعد مسألة ليدا الذهاب برفقتهم، فبخلاف أنَّ كلمات هذه المواويل الحزينة بدت كطلقات موجهة مباشرة إلى قلبي، لم تطب لي نمنمة محادثات السكارى، أو أي نوع آخر من النقاشات لا أجريه مع نفسي، أو مع عفريتي. شعرت باهتراء كل ما أسمعه، وأنَّ كل ما يُقال لا قيمة له ويخلو من الملاحة. لم أركز أو أسمعهم واعتدت البقاء بوجه جامد أمامهم، لأهيم في تأملي لفيلم تُعرض فيه ابتسامة ليدا بتقنية الألوان المتعددة والسينما سكوب.

كان إرنانديتو -وهو رجل كبير في السن- العامل الوحيد في المنجم القادر على مقاومة إغراء الدردشة لبرهة. كان أقدمهم ولا يتحدث أو يجلس مع أحد. يعيش بمفرده في غرفة. ويأتي ويرحل جالسًا وحده في عربة القطار، بل ويتناول غداءه بمفرده في المنجم في ساعة الراحة، وهو يجلس على حجر أسفل الشمس. ما من أحد سواي، بعد تخطيط وصبر طويلين، تمكّن من كسر صدَفة الصمت التي حمى بها نفسه. ويا للأمور

الاستثنائية التي سمعت هذا العجوز يقصها! بينابينتي هو الشخص الوحيد الآخر الذي تحدثتُ معه قليلاً. ذات مساء، كنا بمفردنا في الكوخ، وعلى عكس العادة، تحدث كثيرًا ونحن نتناول الشاي، فتجرأت على سؤاله عما حيرني منذ فترة:

- ما هو الحقيقي، معلم بينابينتي، في تلك القصة التي تقول إنك ذات مرة أشعلت إصبع ديناميت لتتحدى رجلاً حول من منكما سيفرّ أولاً؟

لم يقل بينابينتي شيئاً. لما انتهى من تناول رواسب قدح الشاي، وقف، وتوجَّه إلى خزانته، وأخرج غرضًا من وراء ظهري، ثم التفت وألقاه فوق الطاولة، فانتفضت من مكاني. إنه إصبع ديناميت.

قال:

- هذا هو. افتحه.

تقدمت بحرص هائل لأفتحه. لم يمتلئ الإصبع بعجينة الديناميت المسامية، وإنما بالرمال.

أنهى رئيس الجماعة الحديث وهو يقول بنبرة حادة:

- «سِحسابيًا» أنا وسيم، لكنني لستُ أحمق!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢٦

حدث شيء أخيرًا يا أختي. لقد قبضوا على روساريو فييرّو. يقولون إنّه قتل أحدًا في قريته. تنفست الصعداء حين عرفت الأمر. كنت قد مللتُ منه فعلًا واستمرّيتُ في مرافقته فقط لإغاظة بعض صديقاتي، لكن ها أنا ذي حرة ولا أفكر في الارتباط بأحد من هنا. كما قلت لكِ في الخطاب السابق، أرغب في مغادرة هذه البامبا العفنة. أنا لم أخلق لشيء مثل هذا. أعتقد أنّ مستقبلي موجود في مدينة كبيرة مثل أنتوفاغاستا. تحكي ابنتا العم أمورًا رائعة عنها. تقولان إنّ فيها صالونات رقص يمكن للواحدة منا أن تتعرف فيها على شباب متعلمين وليسوا مثل الحمقى الموجودين هنا الذين لا يستحقون امرأة توّجت «ملكة للربيع». لا ترتبط المسألة بأنني أصدق الهراء الذي يقولونه هنا، وإنما بيقيني من أنني قادرة على التطلع إلى ما هو أكثر من مجرد عامل منجم يصل إلى بيته مدفونًا بالتراب كحال أبي، بل وسكرانًا فوق كل هذا. أتعرفين؟ حينما اختاروني ملكة ورقصت مع السيد المدير، فكرت: لماذا لا يمكنني التطلع إلى الزواج من شخص مثله: أشقر، وثري، وصاحب سلطة. لماذا قد تتطلع أخريات إلى هذا الأمر وأنا لا؟ يومًا ما، سألعن كل شيء هنا وأتوجه إلى الميناء أو العاصمة. سأفعلها مرة واحدة وإلى الأبد. لِمَ لا؟ أنتِ تعلمين أنني قادرة جدًا على فعل شيء كهذا. أنتِ تعلمين، أليس كذلك؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢٧

لو أنني ظللتُ حتى هذه اللحظة عاجزاً عن تقبل خسارة ليدا، فإنَّ رؤية المأساة التي انغمست فيها ملأتني بحزن منفر وشَكِس وقاس كقسوة التلال. حتى العلاقة الإيروسية-الأدبية التي بدأتها مع أمينة المكتبة الجديدة عقب وصولها لم تتمكن من إصلاح حالتي المعنوية.

قالت الشابة أمينة المكتبة، وهي صهباء ذات نظرة شبقة تتمتع بمفردات وبحسّ ساخر فريدين، إنها لم تغرم بي من أول نظرة كما ظننتُ وأكدتُ بنفسي برضا وسذاجة، بل إنّ الأمر حدث لأنّ السيدة أوتيليا لم تتوقف عن غسل مخّها بالحديث عن روعة هذا الشاب الشاعر الذي يأتي إلى هنا كل مساء، طيلة الفترة التي استغرقتها عملية نقل الإدارة.

- ستتعرفين عليه حين ترينه.

أفنت السيدة أوتيليا كل حياتها في المكتبة، ورغم تميزها بصبرها ونواياها الحسنة، فإنها لم تكن تحديدًا خبيرة في الأدب، ولا مطلعة على الكتب. شهدتُ أكثر من مرة بعض المواقف المخجلة، مثل ذلك اليوم الذي سألها فيه طفل أثناء أداء فروضه المدرسية عن قصيدة لويدوبرو ([25]) تظهر في إحدى المجلات، فأشارت بإصبعها إلى كلمة بين قوسين، وقالت له بنفاد صبر:

- هذا هو العنوان يا بني: «مقتطف».

استمرت العلاقة مع الشابة الصهباء -أول أمينة مكتبة دارسة تصل إلى المستوطنة- فترة قليلة. لقد استمرت تحديدًا ذلك

الوقت الذي تمكنَتْ خلاله من تحمل العيش «في هذه الأراضي الجرداء التي تخدش الروح يا حُبي»، على حد تعبيرها.

أو بمعنى آخر: أقل من ستة أشهر.

في تلك الفترة، تعرضتُ لأول مرة إلى حادث عمل. تزامنَ الأمر مع يوم صرف الرواتب، ولذا ودّ الجميع أن ينهوا عملهم سريعًا ليقبضوا ويذهبوا إلى المقصف. كان العمل على تغيير السكة قد انتهى تقريبًا ووجبَ علينا فقط إتمام تركيب الضلع الثاني، لكن وأنا أضع الصامولة الأخيرة في لوح التثبيت، خفّف أحد عمال السكة المسؤولين عن استخدام الأزاميل كروافع لإبقاء القضيب مثنيًا كقوس من قوته، فنزل القضيب بكل ثقله فجأة، ضاغطًا فوق كلتا يديّ.

كانت صرختي كعواء يفيض بالألم.

خلعَ رئيس العمال قفازيّ بعناية شديدة، بعد أن بدأت الدماء تسيل منهما، ووجدنا أن ظفرَي السبابة والوسطى قد التصقا بهما.

حصلت على راحة مدتها خمسة عشر يومًا، وهو الوقت الذي قضيته محبوسًا في غرفتي، وأنا أرقد فوق الفراش وأتخيل وجه ليدا في بقع السقف. حينما عجزت عن فعل الأمر، أمسكت القلم بين إبهامي وبنصري متألمًا، وكتبت قصائد حرقتها لاحقًا من دون ندم.

صرتُ مهووسًا بحرائق الشعر.

لاحقًا، حدث شيء غيّر حياتي بالكامل: فزت بجائزة في مسابقة شعر على الصعيد الوطني. أرغمني موظف المكتب الذي كتب

لي «أنشودة الملكة» على الآلة الكاتبة على الاشتراك فيها. ذات يوم، كان قد أظهر لي صحيفة من العاصمة وفيها إعلان عن قواعد المسابقة، وقال لي إنّ عليّ أن أشارك على أي حال، فقصائدي أكثر من جيدة. لم أعدَّ نفسي مستعدًا بعد، لكنه أصر، وفي النهاية أرسل إلى المسابقة بعض القصائد التي كتبتها تكريمًا لـ«الملكة إيسابيل».

اسم الموظف بيثينتي مولينا. عدّهُ العجائز مخنثاً، لأنّ أي رجل يتعامل بأدب ورقيّ ليس سوى مجرد منحرف بالنسبة إلى عمال المناجم. كان بيثينتي قارئاً عظيمًا ويتمتع بموهبة فطرية في المحادثات وله باع كبير في معرفة الأدب، ولهذا صرنا صديقين مقربين.

ثمة مرات ذهبنا فيها لنتحدث عن الشعر في حانة يرتادها العشاق بصورة رئيسية، لأنّ الخيار الآخر كان سيعني الذهاب إلى الحانات العامرة بضوضاء موسيقى الـ«رانتشيراس» وصراخ السكارى الذين لا يتوقفون عن التحدث. ورغم أنهم أدركوا الأمر في المنجم وسخروا ودلّسوا بصورة متوحشة على لقاءاتنا في «إل بيرميتيدو» -وهو اسم الحانة- فإنني في ظل تحصُّني بحلاوة الشعر، لم أتأثر ولو بأدنى درجة.

ظهر نبأ فوز أحد عمال مناجم الملح الصخري في مسابقة للشعر في العاصمة في كل صحف المنطقة، فعلم العجائز أنَّ ثمة شاعرًا بينهم. ربما كانوا سيطلقون عليّ لقب «بابلو نيرودا» لو أننا كنا في أي مكان آخر في البلاد غير البامبا. لهذا في اليوم التالي وأنا أعمل بالمجرفة عند إحدى المصاطب الترابية لفتح السكة، وبينما تمر إلى جواري شاحنة ملآنة بفنّيي الصيانة،

وجدتهم جميعًا يهتفون في الهواء، بصوت واحد، كأنّ ثمة اتفاقًا مسبقًا بينهم:

-أهلًا غابرييلا ميسترال ([26]) !

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢٨

أورا! موت روساريو فييرّو كان فظيعًا. ودَّ أن يقتلني أنا أيضًا. هل تتخيلين؟ كنتُ على وشك الموت ورائحة الدم المحروق لا تفارق أنفاسي. وحدها أحلامي قادرة على تهدئتي من شدة فظاعة هذه اللحظة. أحلامي عن نفسي وأنا ملكة. أستيقظ أحياناً في وسط الليل وأرتدي التاج وأنظر إلى المرآة، فأرى نفسي جميلة، بديعة. أظن أنني ولدت لأصبح ملكة، أما أنتِ فلا. أنتِ لم يكن لديكِ الشخصية اللازمة. ليست المسألة أنني لا أقدّرك يا أختي، لكن هكذا هو الأمر. مع ذلك، عليّ أن أعترف أنني لطالما غرتُ منكِ وأنا صغيرة. لو جرحتِ ركبتكِ ووضعوا لكِ لصقة طبية، كنت أجرح نفسي ليضعوا لي أنا الأخرى واحدة مثلك. فكرتُ أحياناً في أنني كنت سأصبح أسعد لو أنكِ لم تولدي، ولهذا صارعتُ كي أتفوق عليكِ في كل شيء، والحقيقة أنني فزت عليك في أمور كثيرة مثل قبلتي الأولى التي جاءت فوق كل هذا مع الولد الذي أعجبك. لم أودّ إيذاءك قط، رغم أنّ علاقتنا مزيج من الحب والكراهية. يقول الناس إنني كنتُ السبب في موتك. ما علينا... كنت أتحدث معكِ عن الملاكم. عجز الشيطان المسكين عن تفهم أنني لم أحبّه قط، ومنذ عودته لم يتركني في سلام. لكنني أصلاً لم أكن أتحدث معكِ عنه، وإنما عن مدى جمالي بالتاج. توبخني أمي كثيراً لأنني أقضي ساعات طويلة أمام المرآة بملابس الملكة، ويبكي أبي هو الآخر، لكنه كان بكّاءً على الدوام. «ليدا الأولى ملكة الربيع». هذه هي أنا، وليست أنتِ، كما أفكر أحياناً، لأنني هنا وأنتِ هناك. أنا هنا وأنتِ هناك، هل تسمعينني؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢٩

بعد مرور عامين على اعتقاله، ظهر روساريو فييرّو ذات مساء في شوارع «المستوطنة». كان قد أكملَ عقوبة الحبس في سجن أوبابي. يقول البعض إنّه سجن «لا سيرينا»، لكنَّ المسألة الوحيدة الثابتة في كل هذه الأمور أنَّ الحبس بدّل أحواله بالكامل. لم يبد كما عهده الناس. بدت هيئته سيئة من دون قصة شعره كإلفيس بريسلي، ومال إلى الثرثرة الزائدة عن الحد، وبات يعرج بقدمه اليمنى. يقولون إنهم ضربوه بمطواة في وتر أكيليس في مشاجرة في السجن.

في هذه المرة لم يوفروا له عملاً، بل إنّه عجز أصلاً عن الحصول على فرصة الاشتراك في نزال استعراضي، لأنّ أيَّ ملاكم أعرج مادة للسخرية والضحك. توقفَ الناس عن تحيته في الشارع؛ لأنَّ أوقات ثمله فاقت فترات استفاقته، وحتى مدربه دون ريتوريكو غونثالث ومساعده مانيوغو تجاهلاه بكل أريحية (لأنّه كلما رآهما، طلب منهما مالاً). أوقفه رجال الشرطة العسكرية أكثر من مرة وهو يرتكب أفعالاً فاضحة في الطريق العام. أسوأ شيء مسألة ليداء، التي ظنَّ أنَّ حبّها له لم يتبدل، لكنها ازدرته بروعة وجلال.

لقد رفضَ التخلي عن حبها، فقد صارت -كما قال دومًا وهو يشرب- هوسه وحلم حريته أثناء فترة عقوبته. كان عليه أن يخرج، وأن يستعيد شهرته، ويعود إلى البامبا، ليسترجع حب هذه المُهرة. هذا هو الغرض الوحيد. هذا هو المسعى الوحيد!

بهذه الطريقة، أحالَ حياتها إلى جحيم في الشهور الثلاثة والأربعة عشر يومًا التي قضاها في «المستوطنة». تتبّع خطاها في

الشوارع، وبحث عنها في السينما، ودهمها في متجر المستلزمات. كان يصل ليلًا قرب بيتها، وينادي عليها بصافرته السابقة المعتادة (صافرة الكلاب).

ذهب مجهوده هباء.

كانت ليدا تمثالًا من الملح الصخري.

وجّهَ روساريو فييرّو غضبه نحوي. ظنَّ أنني وليدا استأنفنا صداقتنا القديمة. عششتْ الفكرة في رأسه بالقوة التي يدخل بها مسمار خط في إحدى عوارض السكة الخشبية.

لطالما أطلق تهديده فوق موائد الحانات:

- سيرى «آكل الكتب» العقاب الذي سيناله مني حين نلتقي.

وحدثَ اللقاء في ذلك المساء الذي رافقتُ فيه زملائي في الجماعة للاحتفال بيوم «عامل المناجم» في حانة «كوباكابانا». كانَ روساريو فييرّو يستند بكوعه إلى حد طاولات الزنك، ثملًا ووحيدًا كمصاب بالجذام، من دون عاهرات يقتربن منه. لما رآني أدخل، لهث كحصان متوحش، وانقضَّ عليّ من دون أن يقول شيئًا، وبدأ يضربني كأنني كيس نشارة. لولا ثمالته ووجود الجماعة كلها التي انتزعته من فوقي انتزاعًا، لحولني إلى عصيدة.

صرخ بغضب:

- اترك ليدا في حالها يا «آكل الكتب» يا بن العاهرة. إنها لي أنا وحدي.

لم يعرف أنَّ ليدا لم تعد لأحد.

لم يعرف أنّها منذ اختيارها ملكة، باتت لا تشغل بالها برجال «المستوطنة»، لأنهم مجرد موتى من فرط الجوع. «المستوطنة» نفسها لم تعد تطيب لها.

لطالما قالت:

- عليّ أن أرحل عن مرعى الموت الشيطاني هذا!

بعد موت روساريو فييرّو، ساءت حالتها. انغلقت أكثر على نفسها، ولم تعد تخرج أو تجلس مع أحد وباتت تتحدث بمفردها، فتوقفت أمها عن استقبال الزبائن، وعادت ابنتا عمّها إلى أنتوفاغاستا. أحياناً سمعوها تقول إنّها أختها، وإنّ أختها هي.

بدأ الناس يدعونها «ليدا الأولى».

في كل يوم، بالتزامن مع ساعة القيلولة -ساعة البامبا المسرنمة- ظهرت لتجلس بجلال فوق سلم باب البيت ونظرتها تائهة في الهواء، بالملابس التي ارتدتها في إحدى ليالي القصص الخيالية قبل أن ينصبوها «ملكة الربيع": الملكة صاحبة أجمل ابتسامة في ذاكرة البامبا بينهن جميعًا.

يقولون: إنَّ روساريو فييرّو، ذات يوم، ظل يسكر عند مشرب كل واحدة من حانات «المستوطنة»، وإنّه طلبَ فيها كلها أن يشغّلوا ألبوم «الفارس» لخوسيه ألفريدو خيمينيث. (أحبها أكثر من حياته/ وضاعت منه للأبد/ لهذا انجرح/ وها هو ذا يبحث عن موته). يقولون إنّه سارَ واصبع الديناميت في حزام بنطلونه، وأنّه أظهره لكل من ودَّ أن يراه، كأنّه يسعى إلى أن يأخذه أحد منه، أو إلى أن يبلغ أحدهم الشرطة العسكرية.

بعثَ إلى ليدا برسالة تقول إنّه راحل وسيعود إلى أرضه ليتركها في سلام. (والحقيقة أنّ مردَّ الأمر أنَّ فضائح ثمالته تسببت في طرده من «المستوطنة»، إذ أمهلوهُ ثمانٍ وأربعين ساعة كي يختفي). قال في رسالته إنّه سيذهب في ذلك المساء لتوديعها ورجاها ألا تتجاهله. لهذا خرجت لتلاقيه.

كان مساء يوم اثنين.

خلا الشارع من أيّ روح.

لم يُسمع سوى قرقعة تقشّر كلس جدران الزنك بفعل الشمس، وتعاظمَ معها صمت الصحراء.

يقول أقرب الأقربين: إنَّ روساريو فييرّو في البداية فكّر في استخدام السكين، لكنه لاحقًا اختار الديناميت. «الحب ومآسيه... إمّا أن ينتزعا كينونة المرء من داخل أحشائه، أو أن يتشعّبا داخله كالورم الخبيث». هذا هو ما قاله عمال المناجم.

يقولون إنّه وصلَ إلى بيتها وهو يدخن، ثم ناداها بصافرته الأبدية، فخرجت. حاول أن يبتسم لها، إلا أنّ إيماءته آلمت وجهه. أمسكها من خصرها، حينما اقتربت منه، وسيجارته في فمه، ثم عانقها بقوة وهمس في أذنها:

- أنتِ أسوأ ساقطة عرفتها في حياتي.

عبرَ قميصه مفتوح الأزرار، ظهر فتيل الديناميت. مجرد خيط طوله عشرة سنتيمترات. اضطرَّ إلى تخفيف عناقه لها بعض الشيء ليُقرّب السيجارة إليه ويشعله. استغلت هي تلك اللحظة للإفلات منه وانطلقت راكضة. يقولون إنّه من قوة الانفجار

ظلت أحشاء روساريو فييرّو ملتصقة بالباب الذي تمكنت ليدا قبلها بثوانٍ من عبوره مرعوبة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خاتمة يُمكن الاستغناء عنها

ذاتَ مساء غائم، بعد فترة قليلة من فوزي بجائزة الشعر ووفاة روساريو فييرّو التي هزت «المستوطنة» وساءت بعدها حالة ليدا، استشعرت تجليًا أو انبثاقًا مقدسًا -وهذا لكيلا أدعوه إلهيًا- وعلمتُ أنني يومًا ما سأكتب رواية.

حدث هذا في المكتبة.

تمكنت في ذلك المساء، وأنا واقف فوق أحد السلالم لتفحص الرفوف الأخيرة في الجناح الأيسر، من رؤية كتاب ذي كعب ضخم لم أتصفحه حتى تلك اللحظة. اعتقدتُ في البداية أنّه كتاب شعر وأمسكته لأنّ عنوانه أعجبني: «آدم بوينوس آيرس». مؤلفه ليوبولدو ماريتشال، وهو كاتب لم أسمع اسمه قبلئذٍ قط. ظهرَ على الغلاف درع عرفتُ لاحقًا أنّه يخص مدينة بوينوس آيرس. أدركتُ أنها رواية بعد أن نفضتُ الكتاب من التراب ونفخته من فوقه. فتحت أول صفحة وبدأت القراءة. بعد اندهاشي المبدئي من «الديباجة التي لا غنى عنها»، وأنا ما زلتُ محاطًا بهالة الغبار الأبيض التي ظلت طافية في الهواء بعد نفضه، استمريتُ في قراءته من مكاني في الأعلى، كأنني سقطت في غشية ما. نزلتُ مع الكتاب، وأنا أضمّه أسفل ذراعي وطلبت أخذه. لم يمسس أحد سواي بطاقة استعارته. لم يقرأه أحد قبلي. سجلوا اسمي. كانت مدة الاستعارة أسبوعًا. ذهبت وجئت به من سكن العزاب إلى المنجم ومن المنجم إلى سكن العزاب، طيلة أيام العمل الستة، من دون أن يغيب عني ولو يومًا واحدًا. كنتُ مذهولًا. أعدت الكتاب عقب انتهاء فترة الاستعارة بعد قراءته أكثر من مرة.

أعدتهُ وأنا مقتنع بشكل مطلق بأنّه لو أنّ ثمة كتاباً فوق أبعد رف، في مكتبة ضائعة وسط الصحراء، تمكّن من تغيير أو إنقاذ حياة رجل (مجرد رجل واحد فقط) فهذا سبب كاف لتكبد عناء كتابته، وأنّ أي كتاب يستحق تكبد عناء كتابته.

خلال سنوات إقامتي في «بدرو دي بالديبيا» أعدتُ قراءة «آدم بوينوس آيرس» عدة مرات وقبل أن تتوقف «المستوطنة» عن العمل وتتحول إلى إحدى القرى الشبحية المتناثرة في الصحراء، ذهبتُ إلى المكتبة وطلبت استعارته مرة أخرى. لم أتردد ولو للحظة واحدة فيما فعلته، فاسمي هو الوحيد الذي ظهر في البطاقة مكتوباً سبع مرات. قلت لنفسي: «هذا الكتاب كتابي».

وسرقته.

دفعتني قراءة «آدم بوينوس آيرس» إلى التخلي عمّا ظننته آنذاك عقيدة مطلقة: الرواية شأن يخص الحمقى. حتى تلك اللحظة، كان الشعر -الشعر فقط- هو عقيدتي. الشعر هو قوة الكلمة، وبناء عالم في بيت واحد، والطفو بزورق الحقيقة في زجاجة شراب للسعال. لكن مع رواية ليوبولدو ماريتشال انقلبت رؤيتي للأدب رأسًا على عقب، إذ اكتشفت أنَّ القصيدة ليست الوعاء الوحيد للشعر، وأنَّ الشعر قادر على أن يسكن النثر بصورة مثالية (وهو شيء معروف مسبقًا، لكنني ظللت أجهله حتى تلك اللحظة). فوق كل هذا، أدركتُ أنّه يمكن لثلاثي الشعر والنثر وخفة الظل أن يتمازج، بل وأنَّ المرء يمكنه -إن استدعت الضرورة- أن يقيم حفلاً بين السيرة الذاتية والمقال والمسرح بصورة تصل إلى حد الانتشاء الجنسي.

شعرتُ داخل أحشائي، فوق كل هذه الأمور، بيقين ثابت يُخبرني أنني ذات مرة سأكتب رواية. عن صحراء أتاكاما. كيف لا تكون عنها؟ سأُظهر فيها عُزلتها ككوكب مهجور، وصمتها الذي يصم الآذان، وسُريها الإجرامية الزرقاء. سأحكي عن بطولة هؤلاء الرجال الذين قهروا هذه الأراضي الجهنمية، بزجاجة في يدهم، من دون مأوى سوى ظلالهم أنفسها. سأتتبع خيوط حياتهم القائمة على التضحية. سأترك شهادة عن أحلامهم، وأفراحهم وأحزانهم. سأتحدث عن إضراباتهم ومسيراتهم وأوانيهم المشتركة، والمذابح المتوحشة التي سقطوا فيها قتلى مرة تلو الأخرى. سأصف بيوتهم البائسة، وحاناتهم، وميادينهم الحجرية. سأحكي عن أعيادهم، وغرامياتهم، وخرافاتهم وأساطيرهم وألعاب طفولتهم العجيبة (قطع ذيول السحالي، ومطاردة زوابع الرمل، والتحدث مع العفاريت). وطبعًا لن أنسى مع كل هذا تكريم عاهرات البامبا. هؤلاء النساء الأسطوريات «رسولات ديونيسيوس ([27]) المأساويات» -كما وصفهنَّ بابلو دي روكا- اللاتي لولا مساهمتهن الاجتماعية الجنسية الغرامية، لما باتَ قهر هذه الصحراء أمرًا ممكنًا، أو لازدادت صعوبته. بالمناسبة، ستبدأ روايتي الأولى بوفاة «الملكة إيسابيل»، وهي اللحظة التي بدأت البامبا تموت فيها فعلًا ومعها حلم «الذهب الأبيض»، لأنّه مع وفاتها باتت الصحراء مجرد صحراء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كلمة المترجم

(يُمكن الاستغناء عنها «سِحسابيًا»)

تنتمي رواية «العصامي» إلى مجموعة من أعمال إيرنان ريبيرا لتيلير خصَّصها بالكامل لتناول عالم مستوطنات الملح الصخري في صحراء أتاكاما التشيلية، إلا أنَّ ثمة شيئًا مختلفًا يميزها عن البقية: كونها مزيجًا بين السيرة الذاتية والخيال الروائي.

يقول المؤلف، الذي ولد في ١١ يوليو من عام ١٩٥٠، في تصريحات لإذاعة «Duna 89.7 FM» التشيلية: إنّه يسعى إلى «أن يظن القارئ بعد قراءة الرواية أنّ الحقيقي خيالي، والخيالي حقيقي»، خاصة وأنّه من المعروف في الأوساط المحلية أنَّ لتيلير وُلد في مستوطنة «ألغورتا» قبل أن ينتقل لاحقًا للعيش في مستوطنتي «ماريا إيلينا» و«بدرو دي بالديبيا» حيث أكمل دراسته.

تمتزج الحقيقة بالخيال داخل الرواية فعلًا، فالمؤلف شأنه شأن البطل إلياثار بدأ أولى خطواته نحو المجد الأدبي بعد نشأته في عالم مستوطنات الملح الصخري، بل إنّه على أرض الواقع حوَّل مجموعة قصائد «الملكة إيسابيل» إلى قصة قصيرة ثم إلى رواية، نشرتها دار «بلانيتا» كباكورة أعماله.

هذه هي الحقائق المؤكدة، لكن هل ليدا وروساريو فييرّو مثلًا شخصيتان متخيلتان أم حقيقيتان؟ لا يرغب إيرنان ريبيرا لتيلير في الإجابة عن هذا السؤال، ويتركه لمخيلة القارئ.

ثمة نقاط كثيرة دفعتني إلى ترجمة هذا العمل بخلاف هذه المسألة، مثل الكيفية التي تمكَّن بها المؤلف من بناء عالمه

المليء بالعواطف المتضاربة في صفحات قليلة: من رهافة وحلاوة الشعر إلى قسوة العيش في صحراء أتاكاما، مرورًا بتقلبات حياة روساريو فييرّو. أكادُ أشعر أنَّ كل شيء محسوب «بالمقاس» -وهو التوصيف الذي استخدمهُ المؤلف أكثر من مرة في عمله- فلا تجد جملة أو فقرة زائدة.

هناك عنصر آخر: الإشارات التي ظلَّ المؤلف يلقيها هنا وهناك في صفحات الكتاب عن شخصيات ظهرت في أعمال سابقة له، تناولت الحياة داخل مستوطنات الملح الصخري. ربما ماريا مارغاريتا بطلة «راوية الأفلام»، من ترجمة الراحل صالح علماني، أبرزها بالنسبة للقارئ العربي، لكن تجدر الإشارة أيضًا إلى أنَّ «الملكة إيسابيل» وأعضاء «فريق اللتر» كانوا أبطال روايتي «الملكة إيسابيل تغني الـ«رانتشيراس» و«سراب حب مع فرقة موسيقية»، للمؤلف ذاته.

تاريخيًا، ظلَّ اقتصاد تشيلي ينتفع من مناجم الملح الصخري بصورة كبيرة منذ ١٨٨٦ وحتى ١٩٣٠، لكنَّ ابتكار بدائل صناعية له، وفترة الكساد العظيم، أدت إلى تدهور أحوال هذه الصناعة بصورة كبيرة. رغم ذلك، ظلت المستوطنات والمناجم قائمة حتى ثمانينيات القرن الماضي تقريبًا. وكما تساءلَ المؤلف على لسان إلياثار في خاتمته «التي يُمكن الاستغناء عنها»: كيف له ألا يكتب عنها، قلتُ لنفسي أنا الآخر: «كيف لي ألا أترجم عنها؟».

لقد جذبني هذا العالم أكثر بعد تجربة قراءة إحدى رواياته للمرة الأولى بالإسبانية، ورغم أنَّ رئيس العمال بينابينتي كان سيقول إنّ عدد صفحات الرواية قليل «سِحسابيًا»، فالعمل عليها كان مرهقًا بقدر كونه ممتعًا، وهذا لعدة أسباب منها مثلًا أنّها عامرة

بمصطلحات وكلمات يصعب العثور عليها في أي قاموس. لا لأنها مرتبطة بالعامية التشيلية، بل لأنها مرتبطة بلغة أهل صنعة معينة، في دولة واحدة فقط، ألا وهي تشيلي. ولولا أنني خلال رحلة البحث تمكنتُ من العثور على قاموس صادر عن جامعة سانتياغو دي تشيلي عام ١٩٣٤ لمفردات أهل هذه الصنعة، لما تمكنتُ من ترجمتها كما يجب. لكن لحسن الحظ وجدتُ هذا القاموس. ثمة أمثلة متواضعة، قد لا تهمّ القارئ العادي. أو ربما تهمّه. لا أعرف حقًا. لكنني أثق في أنّها ستهمّ المعنيين بالترجمة عن الإسبانية. أولها مثلاً كلمة «buque» التي تكررت مرات يصعب عدد حصرها في الرواية، وأيّ دارس للإسبانية لو بحث عنها في أي قاموس، حتى القواميس الإسبانية-الإسبانية، فسيجد أنَّ معناها هو «زورق» أو «قارب» أو «سفينة». وحده هذا القاموس الصادر في ١٩٣٤ من جامعة سانتياغو والمختص بلغة أهل هذه الصنعة هو ما أوضحَ لي أنَّ المقصود هنا «سكن العزاب». من ضمن الأمثلة الأخرى مثلاً كلمة «Oficina» التي يظهر معناها «مكتب» في أي قاموس، لكن بعد البحث تبيّن أنّ هذا الاصطلاح يعني الأراضي التي استوطنتها الشركات وأسست فيها قرى أو مدناً مصغرة في مناطق استخراج الملح الصخري، ومن هنا اعتمدتُ اصطلاح «مستوطنة» في هذه الترجمة، وليس معسكر مثلاً، لأنّه وفقًا لقاموس الجامعة التشيلية فإنّ المعسكر أو «Campamento» تقسيم داخلي داخل هذه الأماكن، ويقصد به الجزء السكني فيها، لا البنايات الإدارية أو الورش أو المناجم أو متاجر المستلزمات، التي تشكل قوام المكان أو «المستوطنة» ككل.

من ناحية أخرى، استقرّيتُ على استخدام مصطلح الملح الصخري الذي أراه أدق، لا ملح البارود، لأنَّ استخدامات المادة المستخرجة من هذه المناجم اشتملت على صناعة الأسمدة والبارود ومواد صناعية أخرى، ولهذا لا يجب حصر التسمية على شيء بعينه، وإنّما تعميمها لتحري الدقة.

في النهاية، أوجّه شكري إلى دار الخان على ثقتهم، وعلى اتفاقنا على ترجمة هذه الرواية التي أرجو أن تروق القراء؛ ليقضوا وقتاً طيباً معها في صحبة إلياثار وليدا وروساريو فييرّو.

محمد الفولي.

القاهرة.

٣ يوليو ٢٠٢١.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

Notes

[←1]

(1) منطقة تقع في شمال تشيلي وكانت تشتهر بمناجم الملح الصخري ومستوطناتها . (المترجم).

[←2]

(2) لعبة ورق أصولها إسبانية وانتقلت بالتبعية إلى عدد من دول قارة أمريكا الجنوبية. (المترجم).

[←3]

(3) المقصود هو الشاعر التشيلي نيكانور بارّا. (المترجم).

[←4]

(4) يصف سفر الخروج عُلّيقة تشتعل في جبل حريب وتذكر الرواية الإنجيلية أن مكانها هو المكان الذي اصطفى فيه الله موسى ليُخرج بني إسرائيل من مصر. (المترجم).

[←5]

(5) الـ«أواسو» هو مسمى لرعاة ومزارعين كانوا ينتشرون في وسط وجنوب تشيلي. يجيد راعي الـ«أواسو» ركوب الخيول ويعد عنصرًا هامًا في الفلكلور التشيلي شأنه شان الـ«كاوبوي» في الثقافة الأمريكية والـ«غاوتشو» في الثقافة الأرجنتينية والـ«تشارّو» في الثقافة المكسيكية. (المترجم).

[←6]

(6) في الإسبانية، روساريو اسم للإناث، لا الذكور، ومن هنا تأتي مسألة السخرية. (المترجم).

[←7]

(7) بيخيرّييس نوع من الأسماك الفضية الصغيرة يشبه سمك البساريا، ومن هنا تأتي مسألة التخوف من الاستهزاء.)المترجم(

[←8]

(8) معنى اسم فييرّو هو «الحديد» ومن هنا تأتي مسألة تشريف اللقب والضربة الحديدية. (المترجم).

[←9]

(9) وفقًا لسفر التكوين، أثناء خروج امرأة لوط من سدوم، نظرت خلفها فحلَّ بها العقاب الإلهي وتحولت إلى عمود من ملح. تقول الآية ٢٦ من الإصحاح التاسع عشر: «ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح» (المترجم).

[←10]

(10) وردت في النص الإسباني مكتوبة بصورة خاطئة لمحاكاة نطق بينابينتي المغلوط للكلمة. المقصود طبعاً هو كلمة «حسابياً». سيتضح الأمر بصورة أكبر للقارئ في الفقرة التالية. (المترجم).

[←11]

(11) اسم القطار الذي كان يقطع تشيلي بالطول من الجنوب إلى الشمال وبالعكس في تلك الفترة. (المترجم).

[←12]

(12) بطلة رواية «راوية الأفلام» لنفس المؤلف. (المترجم).

[←13]

(13) الـ«تشاركي»: لحم مجفف تشيلي. المقصود بالعبارة هنا هو السخرية من إلياثار لونا، حيث يَعتبر بينابينتي أنه تعرض للخداع وجاؤوا إليه بعامل أقل جودة من دون لولو. (المترجم).

[←14]

(14) مرد هذا الاسم، طريقة كتابة رقم الثمانية كدائرتين فوق بعضهما، إذ تشبه صورة الدائرة السفلية للرقم بطناً سميناً وتعكس امتلاء جسد ابنتي عمومة ليدا. (المترجم).

[←15]

(15) المركبات الرمزية أحد أهم المظاهر في الاحتفالات والكرنفالات في دول أمريكا الجنوبية، وأشهرها مثلاً تلك التي تظهر في كرنفال ريو دي جانيرو، حيث ترمز المركبات إلى حيوانات أو أحداث وشخصيات اجتماعية أو سياسية، وفقاً لنمط المهرجانات، وتكون مزينة بصورة تفوق الحد. (المترجم).

[←16]

(16) لوحتها تشبه لوحة لعب الشطرنج وتلعب بأقراص مستديرة مثل الطاولة. (المترجم).

[←17]

(17) أحد أهم رموز الثورة المكسيكية. اشتهر بشاربه المميز، وبقبعته الضخمة وبحزامَي الطلقات المتقاطعين فوق صدره. يُعرف في العربية بمنطوق خاطئ هو بانشو فيا. (المترجم).

[←18]

(18) الحارس الشخصي لليجيا في رواية «كوفاديس» للكاتب البولندي هنريك سينكفيتش، والتي تحولت إلى فيلم سينمائي في بريطانيا والولايات المتحدة. لا حاجة طبعًا لقول إنه تميز بالقوة وضخامة الجسد ومن هنا جاءت العبارة التي نطقها روساريو فييرّو. (المترجم).

[←19]

(19) نسبة إلى مدينة رانكاغوا التشيلية. (المترجم).

[←20]

(20) مدينة ساحلية تشيلية. (المترجم).

[←21]

(21) يعني اسم شهرة العاهرة «سيارة الإسعاف» في إشارة من ناحية إلى بدانتها، ومن ناحية أخرى إلى قدرتها على «إسعاف» زبائنها. (المترجم).

[←22]

(22) يجب ألا ننسى أن إلياثار قال في أحد الفصول السابقة، إنه ليس له «ملهمة»، بل عفريت. (المترجم).

[←23]
(23) من ضمن قبائل السكان الأصليين لأمريكا الشمالية. (المترجم).

[←24]

(24) راهب وعالم رياضيات وفيلسوف فلكي بولندي ومن أعظم علماء عصره. ولد في١٤٧٣ وتوفي في ١٥٤٣ . (المترجم).

[←25]

(25) المقصود هو الشاعر التشيلي بيثينتي ويدوبرو الذي ولد في ١٨٩٣ وتوفي في ١٩٤٨ . (المترجم).

[←26]

(26) شاعرة تشيلية حائزة على جائزة نوبل في الآداب. ولدت في ١٨٨٩ وتوفيت في ١٩٧٥ . (المترجم).

[←27]

(27) إله الخمر عند الإغريق ومُلهم طقوس الابتهاج والنشوة. (المترجم).